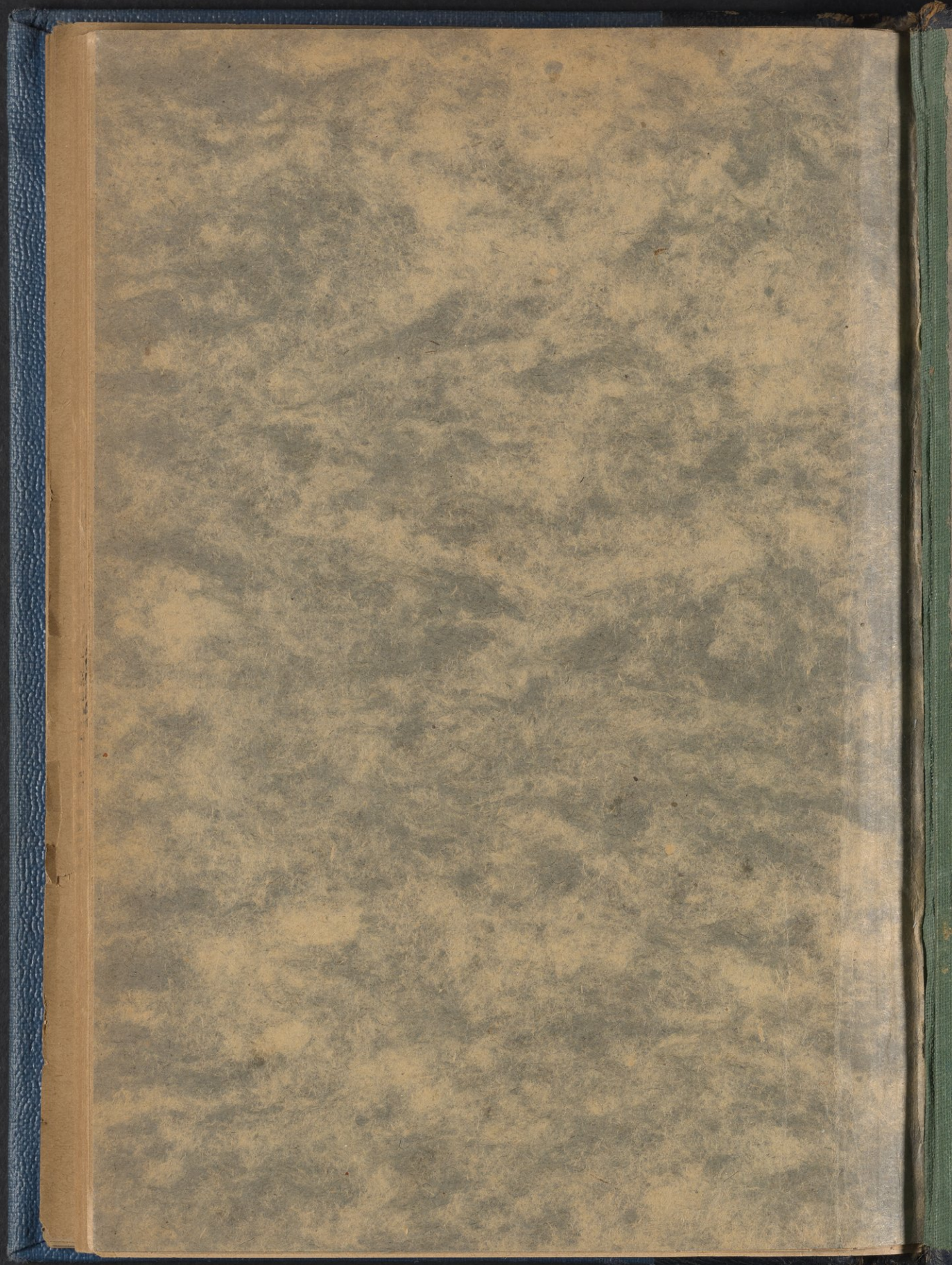
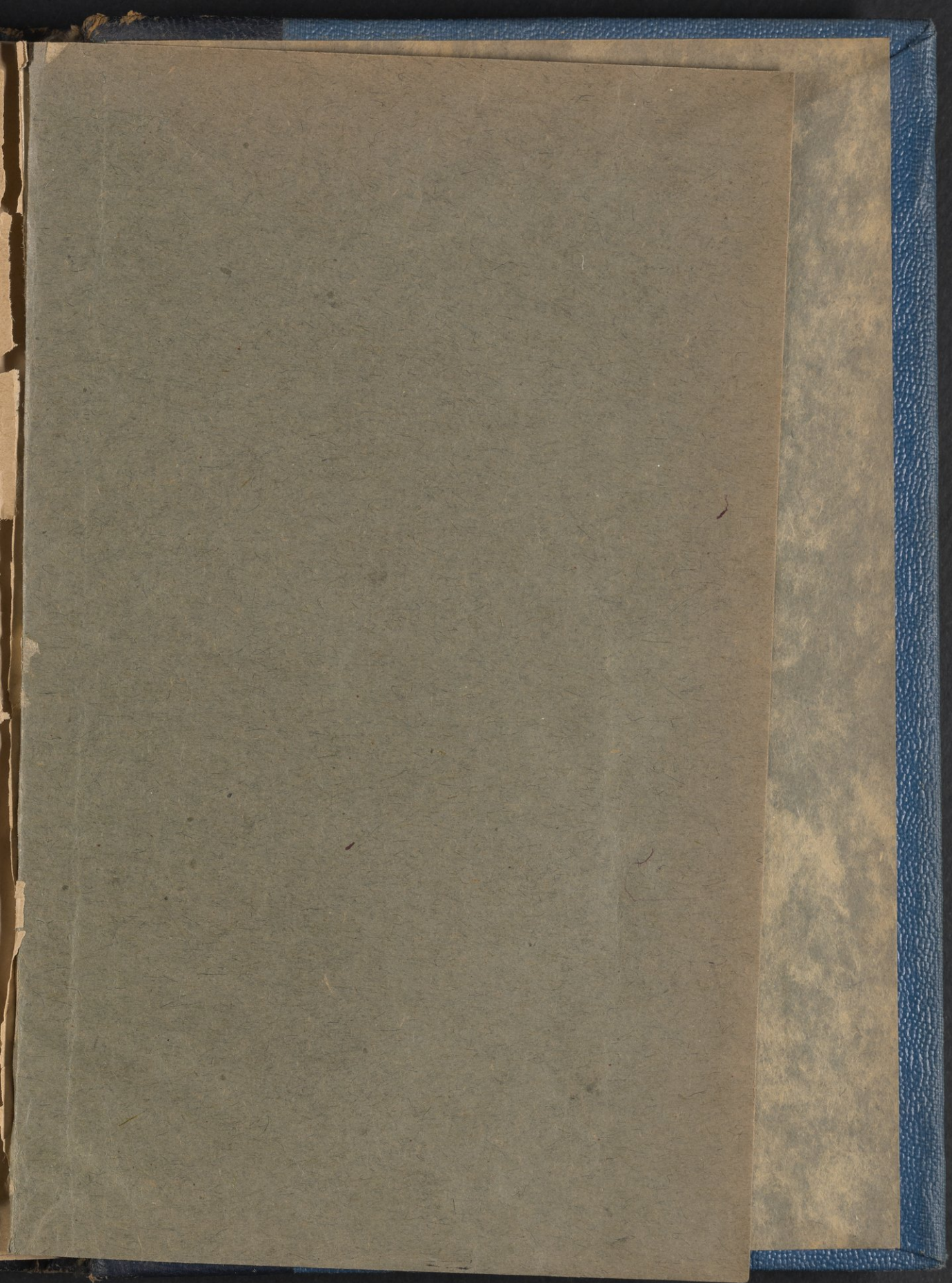


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY

3 8534 0095 1 8238







المكتبة الأهلية. بمصر

غابر الأندلس وحاضرها

DP
302
A46
K9X
1923

تأليف

محمد كرد علي
رئيس المجمع العلمي العربي

الطبعة الاولى

سنة ١٣٤١ هـ - ١٩٢٣ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

المطبعة الرحمانية بمصر

B13703201
15668125

OCLC
68491433

٩١٥٣٠٩
٤٠٤٤

نشرته ادارة المكتبة الاهلية

بمصر

51694

الاندلس

زرت في الشتاء الماضي (١٣٤٠ - ١٩٢٢) بعض امهات
مدن الاندلس فأرادني غير واحد من الاحباب على أن أحدثهم
بطرف مما شاهدت في ربوعها من بقايا حضارة العرب ، فأجبتهم
الى رغبتهم ، شاكر أحسن ظنهم ، وقد رأيت أن أشفع مشاهداتي ،
بشيء من مطالعاتي ، عن هذا القطر ليتعرف القارئ من الغابر ،
وجه الحاضر ، ويقيس في الجملة ما كان هناك في عهد أمتنا ، على
ما هو كأن اليوم في عهد غيرهم ، أذكر ما أثره العرب في تلك
القاصية من حضارة ، وأثلوه من مجد خالد على جبين الدهر ،
والسبب الذي به ارتفعت الأندلس حتى عدت أرى مملكة
في عهد شبابها ، والاعراض التي عرضت لها ، فهرمت فزال
سلطانها ، وتداعى عمرانها ، وابدع سكانها ، وربما تفعت
في الاخلاف ، سيرة الاسلاف ، خصوصاً في أرض لم يكتفوا بأن
فتحوها ، بل عمروها وتديروها ، وحكموها واحكموها ، ومدارسة
حياة الأجداد ، تربي أخلاق الابناء والاحفاد ، يصيدون فيها حكمة
بالغة ، وموعظة حسنة ، والتاريخ يلقي الفكر الجديد ، وينير
الطريف بالتليد ، والله وارث الأرض ومن عليها .

صدر الكلام ومصادره

وهالك ما رجعت اليه من الكتب والرسائل في تأليف
الفصول التالية ، ومنه تعالى أستمد المعونة ومن الراسخين
في العلم تصحيح ما عساهم يعثرون عليه من الهفوات .

- (١) طبقات الأمم لصاعد الأندلسي « طبع بيروت » (٢) نفع
الغريب للمقرئ « مصر » (٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب
المرزا كشي « ليدن » (٤) قلائد العقيان للفتح بن خاقان « مصر »
(٥) مطمح الانفس له « الاستانة » (٦) البيان المغرب في أخبار
المغرب لابن عذارى « ليدن » (٧) الاحاطة في أخبار غرناطة
للسان الدين بن الخطيب « مصر » (٨) رقم الحبل له « تونس »
(٩) الحبل الموشية له « تونس » (١٠) معيار الاختيار في ذكر
المعاهد والديار له أيضاً « فاس » (١١) طوق الحمامة في الألفة
والالاف لأبي علي بن حزم الأندلسي « ليدن » (١٢) الذخيرة
في شعراء الجزيرة لابن بسام « مخطوط » (١٣) أخبار العصر
في انتضاء دولة بني نصر « مونيخ » (١٤) التعريف بالمصطلح
الشريف لابن فضل الله العمري « مصر » (١٥) المسالك والممالك
لابن حوقل « ليدن » (١٦) أحسن التقاسيم للمقدسي « ليدن »

(١٧) كتاب البلدان لابن واضح اليعقوبي «ليدن» (١٨) تقويم
البلدان لأبي الفدا «باريز» (١٩) أخبار مجموعة في فتح الأندلس
وذكر أمراءها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم «مجريط»
(٢٠) الجزء الثاني والعشرون من كتاب نهاية الأرب في فنون
الأدب للنويري وفيه أخبار ملوك الأندلس من العلويين والأمويين
ومن ملك بعد بني أمية إلى حين انقراض الدولة العبادية «غرناطة»
(٢١) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية «الجزائر» (٢٢) كتاب
محمد بن تومرت مهدي الموحدين «الجزائر» (٢٣) عنوان الدراية
فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة بيجاية للغبريني «الجزائر»
(٢٤) المؤنس في أخبار أفريقية وتونس لابن أبي دينار «تونس»
(٢٥) ديوان ابن حمديس الصقلي السرقوسي «رومية» (٢٦) النجوم
الزاهرة لابن تغري بردي «ليدن» (٢٧) العيون والحدائق
في أخبار الحقائق «ليدن» (٢٨) تاريخ المسعودي «باريز»
(٢٩) تاريخ الكامل لابن الأثير «مصر» (٣٠) تاريخ ابن خلدون
«مصر» (٣١) الحلة السيرة لابن الأبار «ليدن» (٣٢) كتاب
القضاة بقرطبة للخشني «مجريط» (٣٣) تكملة التكملة لابن
الأبار «مجريط» (٣٤) التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار «الجزائر»
(٣٥) صبح الأعشى للقلقشندي «مصر» (٣٦) معجم البلدان
لياقوت الحموي «ليبسيك» (٣٧) المكتبة العربية الأندلسية وفيها
سته كتب وهي الصلة لابن بشكوال ، وبغية الملتمس لابن عميرة

الضبي والمعجم لابن الأبار والتكملة لكتاب الصلة لابن الأبار
وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى وفهرست مارواه عن شيوخه
من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف أبو بكر بن
خليفة الأموي الأشبيلي نشرها المستشرقان الأسبانيان كوديرا
وريبيرا « مجريط » F. Codera et J. Ribera : Bibliotheca Arabico - Hispana (Madrid)
(٣٨) المكتبة العربية
الصقلية لميشيل أماري « ليبسيك » M. Amari : Bibliotheca arabo - sicula (Leipzig)
(٣٩) محاضرة ابن زيدون لأحمد
زكي باشا نشرت في السنة الثانية من مجلة البيان « مصر » (٤٠) السفر
إلى المؤتمر لآحمد زكي باشا أيضاً « مصر » (٤١) قصيدة ابن
عبدون وشرحها لابن بدرون « ليدن » (٤٢) رسالة ابن زيدون
وشرحها للصفدي (٤٣) ترجمة ابن عباد « ليدن » (٤٤) ترجمة
ابن زيدون « ليدن » (٤٥) ترجمة ابن عبدون وملوك بني الألفس
« ليدن » (٤٦) قاموس الاعلام لشمس الدين سامي « تركي طبع
الاستانة » (٤٧) مجلة المقتطف (٤٨) مجلة المقتبس « مصر والشام »
(٤٩) دائرة المعارف الاسلامية « ليدن » Encyclopédie
de l' Islam, Leyde (٥٠) تاريخ مسلمي اسبانيا لدوزي « باريز »
Dozy : Histoire des Musulmans d' Espagne, Paris
(٥١) التاريخ العام للأفيس ورامبو « باريز »
Lauisse et Rambaud : Histoire générale, Paris (٥٢) تاريخ العرب

J. Conde : « باريز » والمغاربة في اسبانيا والبرتغال لكونده « باريز »
Histoire de la domination des Arabes et des Maures
تاريخ العرب (٥٣) en Espagne et en Portugal, Paris
Sedillot : Histoire générale : « باريز » العام لسيديليو
« باريز » des Arabes, Paris (٥٤) تاريخ العرب لهوار
C. Huart : Histoire des Arabes. Paris (٥٥) عجالة في تحليل
Fouillée : Essai « باريز » نفوس الشعوب الأوربية لفوليه « باريز »
d'une psy - chologie des peuples européens. Paris
(٥٦) المخطوطات العربية في الاشكوريال هارتويغ دارنبورغ
Hartwig Derenbourg : Les manuscrits arabes (باريز)
de l' Escorial, Paris (٥٧) الصنائع في اسبانيا الكوميز
Gómez - Moreno: El arte en Espana « مجريط » مورينو
« Madrid » (٥٨) الكتابات العربية في غرناطة لاميليو لافوانتي
Emilio Lafuente y alcántrara : « مجريط » أي الكنترارا
« Madrid » Inscriptioes arabes de Grenada (٥٩) دليل
Baedeker : Espagne « ليبسيك » اسبانيا والبرتغال ليبيدكر
et Portugal, Leipzig (٦٠) بحث وصفي لمصانع العرب تأليف
Raphahël Contreras : Etudes « مجريط » رافاهيل كونتروراس
descriptives des monuments arabes. Madrid (٦١) تاريخ
الأديان العام لسلمون ريناخ « باريز » ; Salomon Reinach

اسبانيا (٦٢) Histoire générale des religions. Paris
Marvaud : L'Espagne au « باريز » في القرن العشرين لما رفو « باريز »
XXe siècle. Paris (٦٣) الاسبانيون والبرتقاليون في بلادهم
Quillardet : Espagnols et Portugais « باريز » لكيلاردي « باريز »
(٦٤) اسبانيا والبرتقال مصورتان « باريز » chez eux. Paris
دايرة (٦٥) L'Espagne et le Portugal illustrés. Paris
المعارف الافرنسية الكبرى « باريز » La grande encyclopédie
française, Paris (٦٦) معجم لاروس المصور « باريز »
Nouveau Larousse illustré, Paris (٦٧) بحث في حياة
ابن زيدون لاوغست كور « الجزائر » Auguste Cour : Ibn
Zaidoun, Alger (٦٨) تعليم اللغة العربية في اسبانيا الميكائيل آسين
بلاسيوس « الجزائر » M. Asin Palacios : l'enseignement
de l'arabe en Espagne. Alger (٦٩) معجم الكل في واحد
أو موسوعات العلوم البشرية Tout en un : Encyclopédie des
connaissances humaines (٧٠) دستور في الصنائع الاسلامية
لسالادين وميجون Manuel d'art musulman (٧١) معجم الالفاظ
الاسبانية والبرتقالية المشتقة من العربية لانجلمان « ليدن »
Engelmann : Glossaire des mots espagnols et portugais dérivés de l'Arabe. Leyde
(٧٢) معجم الالفاظ الاسبانية العربية لريتوانجن « مادريد »
Rittwagen : De Filologia Hispano Arabica « Madrid »

نحية الاندلس

٢

عشقتها ولم تسعدني الايام بامتع النظر في جمالها ، واستطلعت
طلع أخبارها ، فروى الرواة عنها عجائب اقلها مما يستهوى النفوس
المتمردة ، ويأخذ بمجامع القلوب الجافة العاصية ، تفردت بين بنات
جيلها بما خصت به من معاني الحسن والاحسان ، فكثير الخطاب
والطلاب ، وهي لا تقتأ تبدي لمن أمَّ حماها صنوفاً من اللطف
والظرف ، وتخطب البعيد والقريب بشعر باسم ، وترشقهم بنظرات ،
لا تخلو من غمزات ، تريد بها الهزوء بنكبات الزمان ، والاستخفاف
بسخافة الانسان .

عشقتها منذ عهد الصبا ، وعشق الصبا شديد ، لما قرأته
الباصرة من وصف سجاياها وحملته الى البصيرة ففكرت فيه ،
وتدبرت خوافيه وحواشيه ، وزادني غراماً بها ما سمعت من أن
أناساً قبلي أصيبوا بما أصبت به ، وعدوا النزول في حماها ولو ساعة
سعادة العمر ، وحسنة الدهر : العشق فنون وعشقي كان لأرض
الاندلس عليها من كل عربي ألف ألف سلام ، على مر العصور
والأيام .

عشقتها لكثرة ما تلوت من آثار من درجوا على أديمها من

أبنائها وغير أبنائها ، وكانت الخيلة تتصورها في مظاهر صح بعضها
يوم اللقاء ، وآخر كان بالطبع كالخيال ، في الاندلس تم نحو نصف
مدنية العرب الباهرة ، وقضوا في أرجائها نحو ثمانية قرون كانت
بجملتها وتفصيلها عهد السعادة والغبطة ، ودور ظهور النوابع وأرباب
الابداع والقرائح ، وكم من أمة من أمم الحضارة الحديثة على
كثرة ما اقتبست وأوجدت ، لم يتيسر لها حتى يوم الناس هذا ان
تبلغ مكانة الاندلس ، فكان هذا الصقع في منقطع أرض المغرب ،
وآخر أرض العرب ، بين البحرين المحيط والمتوسط برهاناً أزلياً
على فرط استعداد العرب للعلوم والصناعات ، وناعياً على من
أنكروا لافراطهم في الشعوبية فضل هذه الأمة على الحضارة .
أقام الغربيون ضروباً من المصانع من بيع وأديار ومتاحف
ومكاتب ومدارس وجسور وسدود وطرق ومعابر وتماثيل ونصب
وبرك ، لكنهم لم يصنعوا على كثرة تقننهم في هذا الشأن ، منذ
عهد اليونان والرومان ، طرزاً من البناء يكلمك ولا لسان له فيقول ،
وينظر اليك فيععمل في شغاف قلبك ولا عين له فتنظر ، ويظربك
بتساوق لغماته من دون ما صناجة ولا وتر ولا ألحان . مصانع
كثيرة بقيت بقاياها في طليطلة وقرطبة واشبيلية وغرناطة سلبتها
الفن والجهل تارة شطراً من بهائها ، وسالمتها حيناً فابقت عليها ، أو
رمت شيئاً مما أضرت به عوامل الايام وان لم تعد اليها نضرتها
الأولى .

سلام على أرض طيبة خصها الخالق باجل الهبات الطبيعية
الطيبة ، فلم ينقصها زكاء تربة في نجادها ووهادها ، ولا مياها عذبة
دافقة من هضابها على شعابها ، ولا أشجاراً بأسقة وزروعاً خصبة
في سهلها ووعرها ، ولا اعتدال مواسم وجمال اقليم ، ومصحة
أبدان زانها الصانع السماوي بايجاده كما زانها الصانع الأرضي
بابداعه ، وما أعمل الطبيعي والصناعي ، اذا تواعدا الى الاجتماع
في خير البقاع .

ليالى الأُنس ، في جزيرة الاندلس ، وأيامها الغر ، في سالف
الدهر ، فيك قامت سوق الآداب ، بما ارتفعت به رؤوس العرب
على غابر الاحقاب ، وكل في ربوعك الذوق العربي حتى ظن بعضهم
انك نسيت كل شيء ما عدا الأُدب ، وما هذه الآثار الأبدية
الاثمة علمك وصناعاتك وزراعاتك : سلام على أرواح علمائك
وفلاسفتك ونوابغك وأدبائك وأمرائك ما كان أرجح أحلامهم ،
يوم سنوا للعرب سنة الأخذ من السعاداتين ، وشرعوا لهم
شرعة المدنية المثلى ، حملوا فأجملوا من الشرق الى الغرب تعاليم
في الدين والدنيا كانت صفوة العقول الى عهدهم فادهشوا من
عاصرهم ، وخلفهم من الاجيال ، ونسجوا لهم على غير مثال
نسيجاً رقيقاً ، كتبوا لهم فيه سجلا رقت حواشيه ، ونظاماً
متقناً في حكم الانسان للانسان ، يطبع في تاليه اذا تدبره ، طبيعة
حسن الذوق والطبع ، وينشئه على أرق مثال من الخيال في السكال

والجمال . مثال حي من حضارة العرب في القارة الأوربية عامة .
وفي شبه جزيرة اسبانيا خاصة ، يفتخر به العرب على اختلاف
أصقاعهم وحق لهم الفخر ، لأن الأندلس العربية الإسلامية
كانت وما زالت مدرسة الغرب المسيحي ، نزل طلابه في قرونهم
المظلمة على علماء العرب فأوسعوهم من مكارم أخلاقهم ، وأكرموا
مثواهم بما علموهم ، وما أسخى العربي على طالب قراه ، والمعتم
بجماه ، فلما جاء دور الانحطاط ، وازف رحيل ذاك الرعيل ، من
أرض كان الغرب كله يعدهم فيها أثقل دخیل ، أبقوا لهم تلك المصانع
ناطقة بفضلهم معاملة لهم معاني ليست في معاجم تفاسيهم ، ومكذبة
على غابر الأيام من ينكر المحسوس ، ويغمط الحق لصاحبه ،
ويستهويه الغرض ، فيشوه وجه الحق الجميل .

الى اليوم لم يزل في الغربيين أناس يصعب عليهم الاعتراف
بمزية للعرب بباعث من بواعث النفوس اللئيمة ، فلا يكادون
يصدقون حتى بما ورد عن هذه الأمة في كتبهم دع كتبها من
أعمال هذه الحضارة العربية ، وما ذاك الأثر الضئيل الباقي من
عاديات الاندلس العربية ، الا برهان جلي على ما كان هناك من
عدل شامل ، وعقل كامل ، ونظر نافذ ، ويد صناع ، أربت على
مامل من مثلها في سائر البقاع والاضقاع

تقويم الاندلس

٣

أخذت العرب اسم الاندلس من اسم سكانها الأصليين
الفانداليس Vandalis فقالوا فاندالسيا أو فاندالوزيا Vandalitia
أو Vandalusia وأطلقوا عليها اسم الجزيرة من باب التغليب
فقالوا جزيرة الاندلس كما قالوا جزيرة العرب وما هي في الحقيقة
الا شبه جزيرة لا اتصالها من أقصى الشمال بجبال البيرنات أو الشنايا
كما كان يعرفها العرب ، قدروا القسم الجنوبي من شبه جزيرة
فانداليس أو أيبريا أو اسبانيا بمسيرة ثلاثين يوماً طولا وزهاء
عشرين يوماً عرضاً مجدها البحر من أطرافها الأربعة الا من الشمال
الشرقي . وميزان وصف الاندلس كما قال ابن سعيد : انها جزيرة
قد أحدقت بها البحار فأكثر فيها الخصب والعمارة من كل جانب .
والاندلس في عرف أهلها اليوم عبارة عن ثماني ولايات وولاية
المرية وولاية قادش وولاية قرطبة وولاية غرناطة وولاية حولنا؟
وولاية جيان وولاية مالقة وولاية أشبيلية ومساحتها السطحية
٨٦٦٨٧ كيلو متراً مربعاً وسكانها زهاء أربعة ملايين فهي نحو
خمس اسبانيا الحالية بسكانها ونحو سدسها بمساحتها السطحية .
هذا ما يطلق عليه اليوم اسم الاندلس بيد ان حكم العرب تجاوز

ذلك الى برشلونة وما وراءها من الشرق والى لشبونة وما جاورها
في الغرب ولم يبق في أيدي الاسبانيين والبرتغاليين من هذه
الجزيرة التي تبلغ مساحتها زهاء نصف مليون وأربعة آلاف
كيلومتر مربع سوى اراض مصخرة ضئيلة من الشمال تعرف
ببلاد الجلالقة وأستوريا .

فالعرب لم يملكوا اذا الجزيرة باسرها حين افتتحوها وانما
ملكوا معظمها ولذلك لا تعرف مساحة الاندلس العربية على
التحقيق . ويقول المسعودي ان مسيرة عمائر الاندلس ومدنه
نحو من شهرين ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة
وقال غيره ان في ارض الاندلس العامر والغامر فكانت من ثم
مساحة الاندلس تختلف بحسب تغلب العرب على أعدائهم أو تغلب
أعدائهم عليهم وكم من الاقاليم والمدن في الشمال والغرب والشرق
دخلت مرات في حكم العرب ثم خرجت عنهم فقد كان عملها
لعبد الرحمن بن معاوية في القرن الثاني ثلاثمائة فرسخ في ثمانين
ثم صغرت في القرن الثامن حتى أصبحت — كما وصفها العمري —
كمنفحص القطة ضيقاً ، ومدرج النمل طريقاً .

لا جرم أن مقام العرب في الاندلس كان غير طبيعي لجاورتها
لأنهم قوية الشكيمة مخالفة لها في الجنس واللسان والدين حتى
ان عمر بن عبدالعزيز لما ولي السمع بن ملك عليها أمره أن يكتب
اليه بصفتها وأنهارها وكان رأيه انتقال أهلها منها لا تقطاعهم عن

المسلمين قال المؤرخ وليت الله كان أبقاه حتى يفعل فان مصيرهم الى
بوار الا أن يرحمهم الله .
وصف المرأكشى ما كان في أيدي الاسبان والبرتقال من أرض
الاندلس سنة ٦٢١ هـ فقال أول المدن في الحد الجنوبي الشرقى
على ساحل البحر الرومى مدينة برشوننة (برشلوننة) ثم مدينة
طركونة ثم مدينة طرطوشة والمدن التى على غير الساحل فى هذا
الحد المذكور مدينة سرقسطة ولاردة وافراغة وقلعة أيوب هذه
كلها يملكها صاحب برشوننة وهى الجهة التى تسمى ارغن . وفى
الحد المتوسط ما بين الجنوب والغرب مدينة طليطلة وكونكة
واقليج وطلبيرة ومكادة ومشریط (مجريط) ووبدوايلة وشقوبية
هذه كلها يملكها الادفنش وتسمى هذه الجهة قشتال . وتجاور هذه
المملكة فيما يميل الى الشمال قليلا مدن كثيرة أيضاً وهى سمورة
وشلمنكة والسبباط وقلمرية هذه كلها يملكها رجل يعرف بالببوج
وتسمى هذه الجهة ليون . وفى الحد المغربى الذى هو ساحل
البحر الأعظم اقيانس مدن أيضاً منها مدينة الاشبونة وشنترين
وباجة وشنتره وشنتياقو ويابرة ومدن كثيرة يملكها رجل يعرف
بابن الريق ووراء هذه المدن مما يلى بلاد الروم مدن كثيرة ثم
ذكر ما يملكه المسلمون لعهد من الاندلس فاورد حصن بنشكلة
وطرطوشة وبلنسية وشاطبة وجزيرة الشقر ودانية ومرسية
وغرناطة وحصون لركة وبلش وقلية وبسطة ووادى آش والمرية

وحصن منكب ومالقة والجزيرة الخضراء .

وقوم القلقشندي الاندلس في المئة الثامنة فقال ان الاندلس
أقامت بأيدي المسامين الى رأس الستمائة سنة من الهجرة ولم يبق
منها بيد المسامين الا غرناطة وما معها من شرق الاندلس عرض
ثلاثة أيام في طول عشرة أيام وبقى الجزيرة على سعتها بيد نصارى
الفرنج وان المستولى على ذلك منهم أربعة ملوك الأول صاحب
طليطلة وما معها ولقبه الادفونش سمة على كل من ملك منهم وعامة
المغاربة يسمونه الفنس وله مملكة عظيمة وعمالات متسعة تشمل
على طليطلة وقشتالة واشبيلية وبلنسية وقرطاجنة وجيان وجليقية
وسائر أعمالها . الثاني صاحب لشبونة وما معها وتسمى البرتقال
ومملكته صغيرة واقعة في الجانب الغربي وهي تشمل على لشبونة
وغرب الاندلس . الثالث صاحب برشلونة وارغن وشاطبة وسرقسطة
وبلنسية وجزيرة دانية وميورقة . الرابع بيرة وهي بين عمالات
قشتالة وعمالات برشلونة وقاعدته مدينة ينبلونه ويقال لملكها
ملك البشكنس .

هذا في الجملة تقويم الاندلس في القديم وكلما توغلت في سمت
الشمال صعب المرور لكثرة الجبال وتراعى المسافات وهي اليوم
في الخطوط الحديدية سهلة في الجملة فاذا جئت من مدينة باريز وهو
الطريق الذي سلكناه تصل الى مجريط في ست وعشرين ساعة
وهي ١٤٥٥ كيلومتراً ومن مجريط الى قرطبة ٤٤٢ كيلومتراً ومن

قرطبة الى اشبيلية ١٣١ كيلومتراً ومن غرناطة الى جبل طارق ٣٠١ كيلومتر ويتأتى اختصار هذه المسافات اذا كانت القطر تقصد الى البلد مباشرة بدون تنقل أو تعاريج ولكن تقل فيها الخطوط المستقيمة والقاطرات .

فتح الاندلس



لما فتح موسى بن نصير مولى بنى أمية أفريقية وما حولها أى تونس وما وراءها سنة ثمان وسبعين للهجرة وبلغ طنجة سار يريد مدائن على شط البحر وفيها عمال صاحب الاندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها . وكان يليان أحد ملوك الاندلس لموجدة وجدها على بعض الملوك من قومه فى تلك البلاد بعث بالطاعة لموسى ، وأقبل به حتى أدخله المدائن بعد أن اعتقد لنفسه ولاصحابه عهداً رضيه ، واطمأن اليه ، ثم وصف له الاندلس ودعاها اليها فبعث رجلا من مواليه يقال له طريف فى أربعائة رجل ومعهم مائة فارس فسار فى أربعة مراكب حتى نزل جزيرة سميت به لنزوله فيها ، وكانت هذه الجزيرة معبر مراكبهم ودار صناعتهم ، فاغار على

الجزيرة فأصاب شيئاً ورجع سالمًا وذلك سنة احدى وتسعين
ثم دعا موسى مولى له يقال له طارق بن زياد فبعثه في سبعة آلاف
من المسلمين، جلهم من البربر والموالي ليس فيهم عرب الا قليل،
فدخل في تلك السفن الاربع في سنة اثنتين وتسعين وأخذت السفن
الأربع تختلف بالرجال والحيل وضمهم الى جبل على شط البحر
منيع فنزله وسمى به جبل طارق والمراكب تختلف حتى توافي جميع
أصحابه.

ولما بلغت ملك الاندلس رذريق صاحب طليطلة غارة طريف
على الاندلس جمع جموعه قيل مائة ألف أو شبه ذلك فبعث موسى
على سفن كثيرة، كان عملها بخمسة آلاف مقاتل فتوافي المسلمون
بالاندلس عند طارق اثني عشر ألفاً ومعهم يليان في جماعة من
أهل البلد يد لهم على العورات، ويتجسس لهم الأخبار، فالتقى
رذريق صاحب طليطلة وطارق بن زياد بموضع يقال له البحيرة
فانهزم رذريق ثم مضى طارق الى مضيق الجزيرة فمدينة استجة،
وحارب فل العسكر الأعظم وهزمه ثم ورد طارق عيناً من مدينة
استجة على نهرها على أربعة أميال فسميت العين عين طارق، وفرق
جيشه فأرسل فرقة الى قرطبة، وأخرى الى رية، وثالثة الى غرناطة
وسار هو في عظم الناس يريد طليطلة، ففتحت كلها وكذلك مدينة
تدمير، وأسر أحد ملوك الاندلس ومنهم من اعتقد على نفسه
اماناً، ومنهم من هرب الى جليقية في الشمال، ثم سار طارق حتى

بلغ طليطلة ، وخلي بها رجالا من أصحابه ، فسلك الى وادى الحجاره
ثم استقبل الجبل فقطعه من فج يسمى فيج طارق .

وفي سنة ثلث وتسعين دخل موسى بن نصير في ثمانية عشر
ألفاً من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر وقد بلغه ما صنعه
طارق بن زياد فحسده وخشى أن ينال شرف الفتح دونه أمام
الخليفة من بني أمية . فلم يلبث ان فتح من المدن ما لم يفتحه
طارق مولاه فافتتح مدينة شدونة وقرمونة واشبيلية وحاصر
هذه أشهراً فهرب أهلها الى مدينة باجة فمضى موسى الى مدينة
ماردة وقتلهم عليها أشهراً فصالحه أهلها على أن جميع أموال القتلى
وأموال الهاربين الى جليقية للمسلمين وأموال الكنائس وحليها له
ثم افتتح سرقسطة ومدائنها .

ذكروا أن المسلمين انتهوا الى مدينة لوطون قاعدة الافرنج ،
ولم يبق لاهل الاسلام شيء لم يتغلبوا عليه مما وراء ذلك الا
جبال قرقوشة وجبال بنبلونة وصخرة جليقية ، فاما الصخرة فلم
يبق فيها مع ملك جليقية الا ثلثمائة رجل تلفوا بالموت والجوع
والحصار فلما لم يبق منهم الا ثلثمائة رجل ورأى ذلك المرتبون
على حصارهم استقلوهم فتركوهم فلم يزلوا يزدادون حتى كانوا سبب
اخراج المسلمين من جليقية وهي فشتيلية .

هذه زبدة مما قاله المؤرخون في فتح الاندلس ولا شك أن
قرب سواحلها من شواطئ أفريقية قد ساعد العرب كثيراً على

هذا الفتح فان المجاز أو الزقاق كما كان يسميه العرب بين البرين
برالعدوة (١) وبر الاندلس قريب جداً يسهل معه نقل الذخائر
والجيش من أفريقية وذلك لأن الزقاق في موضع يعرف بجزيرة
طريف من بر الاندلس يقابل قصر مصمودة بازاء سلافي الغرب
الاقصى وعرضه اثنا عشر ميلا ومن الجزيرة الخضراء في الاندلس
الى مدينة سبته ثمانية عشر ميلا . والباخرة تقطع المسافة اليوم من
الجزيرة الخضراء أو جبل طارق الى طنجة فرضة الغرب الأقصى
في نحو ثلاث ساعات .

وأنت ترى ان معدات الفتح عند العرب كانت قليلة ومع هذا
استصفوا الاندلس في مدة وجيزة ، وذلك لأن الاختلاط القديم
المستحكم للجوار بين أهل الاندلس وبين أهل شمالي أفريقية
وتغلب الاندلسيين أحياناً على بلاد البربر أى الغرب الأقصى
والأوسط ، قد هيأ لسكان البلاد بل لقوادها وحكامها من
العرب أن يعرفوا معالم الاندلس ومجاهلها ، ويقفوا على مواطن
الضعف من حكوماتها ، فقد جاؤوها والاختلاف بين ملوكها

(١) العدوة بضم العين المكان المتباعد ويطلق العرب بر العدوة على ما سامت
الاندلس من شمالي افريقية وبعد عن بلادهم ويعنون بالعدوة المغرب الأقصى
والاوسط والادنى أى مراکش والجزائر وتونس . وقال صاحب التاج وبر
العدوة بالاندلس واليه نسب شهاب الدين بن ادريس العدوى عن قاسم بن اصبغ
قيد الرشاطى . ولعل العدوة هذه بلدة من بلاد الاندلس ليست مشهورة
والمشهورة ان العدوة كما قلنا وايده علماء الجغرافيا من العرب .

على أشده والبلاد قد جاءت قبل مجيئهم ثلاث سنين (من سنة
ثمان وثمانين الى سنة تسعين) ثم وبئت حتى مات نصف أهلها
أو أكثر. واذا صح ان الملك الاعظم في طليطلة جيش على
العرب مئة ألف مقاتل وهو مستبعد فان جيش موسى بن نصير
البالغ اثني عشر ألفاً قد تغلب عليه لا بعدده بل بما للعرب من
الاضطلاع بأمر الحرب هذا وأهل البلاد كانوا في الجملة يريدون
الخلاص مما هم فيه من سوء الحال ولا سيما اليهود فانهم كانوا قبل
بضع سنين قد ذاقوا الامر من حكوماتهم ومواطنهم المسيحيين
فلما جاء العرب الفاتحون كانوا أدلاءهم وأكبر رده لهم لعلمهم
بأنه ينفس خناقهم بالفتحين. وكان المسلمون كلما دخلوا بلاداً
جعلوا نصف حاميتها من اليهود والنصف الآخر منهم. ثقة
في ابناء اسرائيل وضعها المسلمون فيهم مدة كونهم في الاندلس.
تولى البلاد المفتوحة عمال الدولة الاموية في الشرق وتعاقب
عليها قوادهم ومواليهم منذ سنة ٩٢ هـ وخطب باسم خلفائهم
على منابرهم ثم خطب مدة قليلة للعباسيين (١) بعد سقوط دولة

(١) دعا عبد الرحمن بن معاوية نفسه عند استغلاظ امره واستيلائه على
دار الامارة قرطبة ويقال انه اقام اشهراً دون السنة يدعو لابي جعفر المنصور
متميلاً في ذلك يوسف الفهرى الوالى قبله الى ان افرغ نفسه بالدعاء. ويقال
ان عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم اشار عليه بذلك عند خلوصه اليه
فقبله الا انه لم يعد اسم الامارة وسلك الامراء من ولده سنته في ذلك الى عهد
عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله فهو الذى تسمى بالخلافة بعد سنين من

الأمويين بالمشرق حتى اذا كانت سنة ١٣٨ جاء من الشرق هاربا
عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المسمى
بالداخل فتغلب بواسطة جماعة من أهل بيته وموالي آل مروان وبما
له من العصبية في قبائل زناثة أخواله ، وكانت والدته منهم حتى
استولى على الأندلس ، وبذل أهلها له الطاعة ، فأصلح من شأنها
ورفع وأبناؤه وأحفاده من بعده شأن خلافتهم هناك وأجمعت
القلوب على جهم وقل المنتفضون على ملكهم المتوثبون على
سلطانهم ، ولقد أنصف المنصور العباسي عند ما لقب عبد الرحمن
الأموي بصقر قريش لانه « عبر البحر وقطع القفر ، ودخل بلدأ
أعجمياً مفرداً ، فمصر الأ مصار وجند الاجناد ، ودون الدواوين ،
وأقام سلطاناً بعد انقطاعه ، بحسن تدبيره وشدة شكيمة »
انقرض ملك بني مروان من الاندلس سنة ٤٠٧ هـ على رأس
مائتي سنة وثمان وستين سنة وثلاثة وأربعين يوماً بعد ان جمعوا
الشملى ، ورأبوا الصدع ، وأحيوا المعالم ونشروا العدل ، وخدموا
الحضارة ، وكانت أيامهم اعراساً وأفراحاً ، فتفرق الملك بأيدي
ملوك الطوائف فكان « كل ملك لما بيده فضبط اشرف العمالات
أزمة أمورهم ، وركبوا ظهور غرورهم ، وتنافسوا في انتحال

سلطانه ودعى بامير المؤمنين لما استفحل امره واستبان له ضعف ولد العباس
وانتشار سلطانهم بالمشرق وذلك في آخر خلافة المقتدر بالله جعفر بن احمد المتضد
منهم ذكر ذلك ابو مروان ابن حيان مؤرخ الاندلس .

اللقاب السلطانية فأتوا من ذلك بكل شنيعة « الى ان قام رأس المرابطين وأمير المسلمين يوسف ابن تاشفين اللمتوني صاحب المغرب الأقصى وأعاد للبلاد مع ابنه علي بن يوسف سالف نضارتها ، ودعا للخلافة العباسية على منابر الاندلس ولم تزل الدعوة للعباسيين وذكر خلفائها على سائر الاندلس والمغرب الى أن انقطعت بقيام ابن تومرت مع المصادمة في بلاد السوس .

تنفس خناق البلاد بالقوة الجديدة التي جاءت بها دولة المرابطين لشدة ازر المسلمين في الاندلس ، كما عادت اليهم بعض القوة على عهد الموحدين ، وكان هؤلاء لا يتوقعون عن نجدة اخوانهم في الاندلس ، حتى ان الخليفة المنصور من الموحدين لما دنت وفاته جمع بنيه والموحدين ووصاهم بوصايا منها : أيها الناس أوصيكم بتقوى الله « واوصيكم بالايتم واليتيمة » أراد بالايتم أهل جزيرة الاندلس وباليتيمة بلاد الاندلس ، الا أن أحوال الجزيرة اختلفت في أواخر دولة أمير المسلمين علي بن يوسف فأوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم ، وميلهم الى الدعة ، وايشارهم الراحة ، وطاعتهم النساء فهانوا على أهل الجزيرة ، وقلوا في أعينهم ، واجترأ عليهم العدو ، واستولى النصراني على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم ، وكادت الأندلس تعود الى سيرتها الأولى ، بعد انقطاع دولة بني أمية فاستدعى عقلاء الجزيرة بني مرين من بر العدو فجاءهم أميرها سنة ٦٥٨ في جيش ضخم فملك بالاندلس ثلاثة

وخمسين مسوراً ما بين مدن وحصون وهو اول من ملك العدوتين
من بنى مريين وجاهد الفرنج فدوخ بلادهم وكانت قبل جوازه
الى الاندلس تستطيل على المسلمين وملكوا قواعد الاندلس
وأكثر حصونها مثل قرطبة واشبيلية وجيان وشاطبة ودانية
ومرسية وغيرها ولم تنتشر للاسلام راية منذ وقعة العقاب (١)
سنة ٦٠٩ الى أن جاءت رايته وكانت الحروب والغزوات متصلة بين
العرب وأعدائهم في القرن الخامس والسادس والسابع وكثيراً
ما يؤدى ملوك العرب الجزية للافرنج بعد ان كان هؤلاء في القرن
الأول والثاني والثالث والرابع يؤدون الى العرب الجزية . ولما
أغلظ ابن تاشفين لافونس الكلام في المكاتبة قال هذا : « بمثل
هذه المخاطبة يخاطبني وأنا وأبي نغرم الجزية لاهل ملته منذ ثمانين
سنة وكان ذلك سنة تسع وتسعين وأربعمائة »

وبعد ان زال حكم الموحدين من اسبانيا دخلت في حكم محمد بن
يوسف بن هود من بطليوس الى مرسية وقرطبة واشبيلية
سنة ٦٢٦ ولما هلك التف المسلمون حول محمد بن يوسف بن الأحمر
من أسرة بنى نصر فاستولى على الاندلس سنة ٦٢٩ فدام فيه
وفي أعقابه نحو قرنين ونصفاً كان الضعف رائد دولتهم أولاً حتى

(١) هذه الوقعة وقعة العقاب هي المعروفة عند الافرنج باسم لاس نافاس
دى تولوزا Las Navas de Tolosa وهي قرية من عمل ولاية بيان
اشتهرت بانتصار ملوك ارغن وقشتالة ونافار على العرب سنة ١٢١٢ — ٦٠٩ هـ
وقد ضربوا العرب ضربة لم يتمكنوا بعدها من التوغل في بلاد اسبانيا

لقد صالح ابن الأحمر الفنس ملك اسبانيا سنة ٦٦٥ على أن اعطاه
نحو أربعين مسوراً من بلاد المسلمين من الشرق فقال أبو محمد
الرندي يرثي الاندلس ويستصرخ أهل العدو من بني مرين قصيدته
المشهورة التي يقول فيها

دهى الجزيرة خطب لاعزاء له
هوى له أحد وانهد شهان
أصابها العين في الاسلام فامتحننت
حتى خلت منه أوطان وبلدان
فسل بلنسية ماشان مرسية
وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم

من عالم قد سما فيها له شان
وعاد أمر المسلمين فضعف وبنو الأحمر آخر ملوك الأندلس
يستصرخون الموحدين من أهل العدو فينجدونهم حتى رسخت
أقدام الملوك من بني الأحمر أو بني نصر في بقعة صغيرة من البلاد
جعلوا غرناطة عاصمتها ولما انقرضت دولة الموحدين اعتمد بنو
الأحمر على قوتهم في حماية سلطانهم حتى ضعف أمرهم وصحت نية
الاسبان على اخراجهم من شبه جزيرة اسبانيا باتفاق ايزبيلا
الكاثوليكية وفرديناند واتحاد ملوك ارغن وقشتالة ونافار تحت
سلطان واحد وكان خروج آخر ملك من بني الأحمر من بلاد
الاندلس سنة ٨٩٧ هـ ويومئذ انتهى حكم العرب هناك .

عمران الاندلس

٥

في أرض اندلس تلتذ نعماء
وليس في غيرها بالعيش منتفع
وان يعدل عن أرض يحض بها
واين يعدل عن أرض تحث بها
وكيف لا يهيج الابصار رؤيتها
انارها فضة والمسك تربتها
وللهواء بها لطف يرق به
ليس النسيم الذي يهفوها سحرأ
وانما أرج الند استثار بها
واين يبلغ منها ما أصنفه
قد ميزت من جهات الارض حين بدت
دارت عليها لظاها البحر خفقت
لذاك يبسم فيها الزهر من طرب
فيها خلعت عذارى ما بها عوض
ولا يفارق فيها القلب سراء
ولا تقوم بحق الانس صهباء
على الشهادة ازواج وابناء
على المدامة امواه وافياء
وكل روض بها في الوشى صنعاء
واخذ روضتها والدر حصباء
من لا يرق وتبدو منه اهواء
ولا انتشار لآلى الظل انداء
في ماء ورد فطابت منه ارجاء
وكيف يحوى الذي حازته احصاء
فريدة وتولى ميزها الماء
وجداً بها أو تبدت وهي حسناء
والطير يشدو وللاغصان اصغاء
فهي الرياض وكل الارض صحراء
« ابن سفر المريني »

كانت شبه جزيرة اسبانيا في عمراتها قبل الفتح العربي منحطة
عن عامة الممالك الاوربية . حكمها الرومان وكانوا من خير من شاد
بنياناً ، واقام في المعمور عمرانا ، ومع هذا لم ينلها من عنايتهم كبير
أمر ، فلما جاء العرب الفاتحون في العقد الاخير من المئة الاولى ،
كان عهدهم الاول عهد الفتح على نحو ما كان عهدهم في الشام ،
قلما التفقوا فيه الى تجويد البناء حتى اذا ورد على الاندلس من
الشرق بل من دمشق عبد الرحمن الداخل الاموي سنة ١٣٨ هـ
نقل مع جماعته أسلوب أمته في العمران ، وكان سبقه اليها جمهور
من الشاميين ، نقلوا أسلوب بنائهم وعاداتهم وأصول معاشهم ،
فاعتمدوا في بناء قصورهم ودورهم على الهندسة الدمشقية
في الغالب ، وجعلوا في الدور فناء أو صحناً في وسطه بركة ماء وعلى
جانبيها الازهار والاشجار ، وتقوم بعض طنوف الطبقة الثانية
من البناء على عمد من الرخام وغيره ، والدور طبقتان فقط طبقة
سفلية للصيف والطبقة العلوية للشتاء ويدخل الى الدار من دهليز .
رسم خطط هذه الدور بادىء بدء مهندسون من الروم ثم أصبحت
مع الزمن هندسة خاصة للعرب على ما كان شأنهم في الشام .
يقول بعضهم أن العرب لما وصلوا اسبانيا لم يكن لهم هندسة
مخصوصة فقل فيهم كالااسبانيين الابداع والايجاد ولكنهم تفننوا
في النقش . واقدم مصانعهم مسجد قرطبة ، انشاء عبد الرحمن
الداخل سنة ٧٨٥ م والنقوش فيه والفسيفساء من عمل صناع من

الروم ومن هنا نشأت الصناعة العربية وتمثلت في المساجد والبيع والقصور والحمامات والابراج والابواب الحصينة . ومن اغرب المباني مسجد طليطلة مثال الهندسة العربية وقاعدة منارة مسجد اشبيلية وكثير من الارتجة والابواب . ولما استولى الاسبان على اشبيلية جعل ابن الاحمر غرناطة عاصمته فقام قصر الحمراء وظهرت بدائعه ، وهو أجمل زهرة من زهرات الصنائع النفيسة التي تفتقت اكامها بايدي العرب . وظل صناع العرب في اسبانيا قروناً بعد ذهاب دولتهم يعملون في المصانع الاسبانية ويدخلون في هندستها بعض أساليبيهم فاثروا بها تأثيراً عظيماً في المعاهد المبنية على الاسلوب الغوطي والايطالي (الرينسانس) .

ولقد كان ملوك الاندلس وامراءها وقوادها وعامة من تولوا خطط الحكم والقضاء والحسبة ، غرام باستكمال نخامة الملك ، وتشيد القصور ، وجلب المياه وبناء الارصفة ، واقامة القلاع والحصون . بدأ بذلك عبد الرحمن الاول وجرى آل بيته وعطاء مملكته ، على قدمه في هذا الشأن ، ومنهم عبد الرحمن بن الحكم (٢٣٨) الذي كان « أول من جرى على سنن الخلفاء في الزينة والشكل ، وترتيب الخدمة ، وكسا الخليفة أبهة الجلالة فشيّد القصور ، وجلب اليها المياه ، وبني الرصيف ، وعمل عليه السقائف ، وبني المساجد الجوامع بالاندلس ، وعمل السقاية على الرصيف ، وأحدث الطرز ، واستنبط عملها ، واتخذ السكة بقرطبة ، ونغم

ملكه ، وفي أيامه دخل الاندلس نفيس الوطا وغرائب الاشياء .
ومنهم عبدالرحمن ابن محمد الذي قال فيه صاحب العقد : « ان الملوك
لم تزل تبني على أقدارها ويقضى عليها بآثارها وانه بنى في المدة
القليلة ، ما لم تبني الخلفاء في المدة الطويلة ، نعم لم يبق في القصر
الذي فيه مصانع أجداده ، ومعالم أوليته ، بنية الا وله فيها أثر
محدث ، أما تزيد أو تجديد

كانت البلاد نسقاً واحداً في العمران حتى كان للقري أيضاً
نصيب وافر من العناية ولذلك كثر عددها حتى قالوا انه كان على
الوادى الكبير فقط أربعة عشر ألف قرية فكنت على رواية ابن
سعيد اذا سافرت من مدينة الى مدينة ، لا تكاد تنقطع من العمارة ،
ما بين قرى ومياه ومزارع ، والصحارى فيها معدومة ، أى
في القسم الذي تأصل فيه حكم العرب . ومما اختلفت به ان
قراها في نهاية من الجمال لتصنع أهلها في أوضاعها وتبييضها لثلا
تنبو العيون عنها بل هي طراز من مناظر قد أتقنت بالبياض
والزخرفة تخطف بالابصار عند وقوع شعاع الشمس عليها .
لاحت قراها بين خضرة ايكها كالدر بين زبرجد مكنون
قويت حركة العمران بالطبع حيث كان يقيم الخليفة والسلطان ،
ولما ابنتى عبد الرحمن بن محمد في غربي قرطبة مدينة الزهراء
خط فيها الاسواق وابنتى الحمامات والخانات ، والقصور
والمتنزهات ، واجتلب الى ذلك بناء العامة ، وأمر مناديه بالنداء ،

الامن أراد أن يبني داراً أو يتخذ مسكناً بجوار السلطان فله
اربعمائة درهم فتسارع الناس الى العمارة فتكاثفت وتزايدوا فيها
فكادت أن تتصل الأبنية بين قرطبة والزهاء والمسافة أربعة
أميال .

كان بناء الاندلسيين بالآجر والحجر وكان الحجر عندهم أنواعاً
منه الحمري والأحمر والأبيض والمجزع وكانوا ينحتون السوارى
والعمد من مقالعهم على الأغلب . وقيل ان سوارى جامع قرطبة
جلبت من البيع القديمة من جنوبي فرنسا وإيطاليا ومن أفريقية
والاستانة وسواء قطعت من مقالع الاندلس ، أو جلبت من
القاصية ، فان في ذلك فضلاً كبيراً للعرب ، يدل على معرفتهم
الأشياء الحسنة ، وقدرتهم على حمل هذه الاثقال في البر والبحر ،
مع قلة الآلات الرافعة ، وقصور علم الحيل عما هو عليه في عصرنا
قال أحد الباحثين من الفرنجة : في اسبانيا ميدان لدرس
الصناعة العربية المغربية منذ بدايتها وكان التردد بادىء بدىء
بادياً عليها الى أن ظهرت في مظهرها هذا على غاية من الغرابة
والظرف . وقال بعضهم ان الهندسة العربية قد أفرغت جهدها
في قصور الحمراء ، وأتت ما وسعتها الاجادة والظرف بأمثلة ، تأخذ
بمجامع القلوب في العمران ، ولو لم يكن جل الاعتماد على الخشب
والحص في البناء ، وهما مما تقل متانته ، لانت منها آثار خالدة
أكثر مما أتت ، ولكن مجموعها مدهش غريب يمجّد خيمة العرب

الرحل في البادية . ومن أغرب ما صطنعوه عمل المقرنص في القباب مؤلفاً من عدة قباب صغرى متناسقة ، بدون أن ترى اللحمة بينها ، والنقش فيها قليل الا ما كان من جمل نقشت بالحروف الكوفية أو العربية المشبكة الاندلسية

قلنا ومعظم الآثار التي بناها الاسبان بعد سقوط آخر دولة الاندلس كانت بأيدي صناع من العرب ، أبقوا عليهم لقيام مصانعهم ، وذلك لان الاسبان كانوا متأخرين في الهندسة والصنائع النفيسة ، وأهم ما يتنافس فيه الاسبان الى اليوم القيشاني فانك تراه في كل بيت وكنيسة ، وحائط ونزل ومدرسة ومتحف ، وهو أنواع منه ما يجعل على الأرض ، ومنه ما يجعل على طول قامة الانسان في الجدران المختلفة ، وللآجر عندهم شأن عظيم في البناء ، وقد يدمقرون كما شاهدنا ذلك في خرائب القسوط بمصر وأكثره من بناء القرن الاول للهجرة

يصعب تعداد المصانع التي شاهدها العرب في أوقات مختلفة ، في الاصقاع التي نزلوها ، كما يصعب اعطاء حكم تام على معالمهم ، لان كثيراً من بنيان الاندلس عوّر بتداول الايام ، فصح في منبرها ودسا كرها قول أحد الاندلسيين في بلنسية وقد عاث العدو فيها عاثت بساحتك الظبا يادار ومحا محاسنك البلى والنار فاذا تردد في جنابك ناظر طال اعتبار فيك واستعبار أرض تقاذفت الخطوب بأهلها وتمخضت بخرابها الاقدار كتبت يد الحدثان في عرصاتها لا أنت أنت ولا الديار ديار

أهل الاندلس

٦

كان الجيش الذي فتح الاندلس باديء بدء مؤلفاً من قليل من العرب ومن البربر سكان الغرب الأقصى والأوسط وما اليهما . نزل كل فريق منهم في بقعة فاعمرها وأقطعهم القواد مراحل عنه أهله من المزارع والمداشير . وقد فرق الحسام ابن ضرار الذي ولي امارة الاندلس في سنة ١٢٥ وخضعت لسلطانه جميع العرب الشاميين الغالبين على البلد ، وأبعدهم عن دار الأمانة قرطبة ، اذ كانت لاتحملهم وأنزلهم مع العرب البلديين أي السابقين الى الاندلس ، في سنة الفتح سنة ٩٢ للهجرة . والشاميون هم الذين دخلوا سنة ١٢٥ أنزلهم على شبه منازلهم في كور شامهم ، وتوسع لهم في البلاد ، فانزل في كورتى اكشونبة وباجة جند مصر مع البلديين الأول ، وأنزل باقيهم في كورة تدمير وانزل في كورتى لبلة واشبيلية جند حمص مع الأول أيضاً ، وانزل في كورتى شدونة والجزيرة جند فلسطين وانزل في كورة رية جند الاردن ، وانزل في كورة البيرة جند دمشق ، وانزل في كورة جيان جند قنسرين أي حلب ، وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة . وبقي العرب البلديون من الجند الأول على ما بأيديهم من أموالهم لم يعرض لهم في شيء منها فاما رأوا بلاداً شبه بلادهم خصباً وتوسعة ، سكنوا واغتبطوا وتمولوا .

قال ابن الخطيب: أنزلوا القبائل الشامية في كور على شبه منازلهم التي كانت في كور شامهم، وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة طعمة وبقي العرب والبلديون والبرابرة شركاؤهم وسكنوا واغتبطوا، وكبروا وتمولوا، إلا من كان نزل منهم لأول قدومه موضعاً رخيلاً، فإنه لم يرتحل وسكن به مع البلديين. وحكى غيره أنه نزل في البيرة من كان قدمها من جند دمشق من مضر وجلهم قيس وافناء قبائل العرب، ونزل رية جند الأردن وهم يمن كلهم من سائر البطون، ونزل شذونة جند حمص وأكثرهم يمن وفيهم من نزار نفر يسير، ونزل مدينة الجزيرة البربر واخلاق من العرب قليل، ونزل في جيان جند قنسرين والعواصم وهم أخلاق من العرب من معد واليمن، ونزل قبائل البربر مدينة بلنسية.

وما عدا قبائل العرب والبربر الذين تفرقوا في بلاد الاندلس على ما رأيت كان فيها أخلاق من الشعوب من رومان وقوط ومهاجرة من أقطار شتى فامتزجوا كلهم في بودقة واحدة. قال هوار: ولما أصبح عبد الرحمن ملكاً على جميع اسبانيا الاسلامية (٣٢٠ - ٩٣٢) استند لقتال طبقة الاشراف من نسل العرب المهاجرين على الاسبانيين الذين دانوا بالاسلام وعلى كثير من الاسرائيليين والمسيحيين فتوصل بذلك الى جعل الكل أمة واحدة عرفت في الشرق باسم الاندلس

ولقد استمرت قبائل العرب الشاميين « في غمار من الروم
يعالجون فلاحه الارض وعمران القرى رأسهم أشياخ من أهل دينهم ،
أولو حنكة ودهاء ومداراة ومعرفة بالجباية اللازمة لرؤسهم »
فاحتفظ العرب بسكان البلاد الاصليين ، وهياؤا السبل لدخول
المهاجرين اليها من المسلمين على اختلاف عناصرهم ومن غيرهم ،
فأسلم كثير من أهل البلاد ، واختلطت أنسابهم بأنساب العرب ،
وكان المغلوبون يقلدون الغالبين لا اول الامر في مناحيهم وعاداتهم ،
شأن المغلوب مع الغالب ، قال فوليه : بعد ان حكم العرب اسبانيا
قروناً دخلتها كمية وافرة من الدم الافريقي فكان ذلك من موجبات
ارتقاء العقل في اسبانيا . ومزج الدم الاسباني بالدم العربي هو ولا
شك من جملة الاسباب التي تحمل بالاسبان على اختلاف
أصقاعهم الى الطموح الى العظام ومراتب الشرف اه .

ولما دب الضعف في الاندلس أصبح العرب يتشبهون بجيرانهم
من الافرنج . روى المقرئ : ان بنى الاحمر كثيراً ما يترى اسلاطينهم
وأجنادهم بزى النصارى المجاورين لهم . وذكر ابن خلدون
أوائل المئة التاسعة ان أهل الاندلس يتشبهون بأمم الجلالقة
« في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم ، حتى
في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت ، حتى لقد
يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة انه من علامات الاستيلاء »
فبعد ان كان القشتاليون والجلالقة دع أبناء الأندلس من غير

المسلمين يتشبهون بالعرب أصبح هؤلاء في أواخر أيامهم يتشبهون بهم ، شأننا اليوم مع أمم الغرب نقلدهم في أزيائهم ولباسهم وعاداتهم ، ونفسح المجال لكل ما ينفقونه علينا من بضائعهم العلمية والاجتماعية ، سنة الله في الضعيف مع القوي .

امترج المستعربة *Lesmozarabes* أو المسيحيون الذين يتكلمون بالعربية في الاندلس ، بالقادمين عليها فلقى المعاهدون منهم رعاية من الفاتحين اللهم الا في الادوار التي كانوا يكيدون فيها للمسلمين ، ويخرجون عن الذمة فان الفقهاء كانوا يفتون بتغريبهم واجلائهم عن أوطانهم ، وقد أجاز منهم يوسف بن تاشفين الى بر العدو «عدداً جماً ، أنكرتهم الاهواء ، وأكثتهم الطرق ، وتفرقوا شذر مذر » على انه لم يقع شيء من هذا القبيل الا في النادر لان العرب كانوا يحرصون على بقاء أهل البلاد فيها ليعمل التطور عمله فيسلم من يسلم مع الزمن منهم أو يعطى الجزية ويتعلم العربية فتخفف الفوارق بينه وبين أهل عصبية الفاتح .

فمن ثم ساغ لنا أن نقول ان أهل الاندلس لم يكونوا كلهم من نسل العرب بل كان منهم العرب قال صاحب فرحة الانفس : أهل الاندلس عرب في الانساب ، والعزة والانفة وعلو الهمم ، وفصاحة الالسن ، وطيب النفوس ، وأبء الضيم ، وقلة احتمال الدل ، والسماحة بما في أيديهم ، والنزاهة عن الخضوع واتيان الدنية هنديون في أفراط عنايتهم بالعلوم ، وحبهم فيها وضبطهم

لهاوروايتهم ، بغداديون في نظافتهم وظرفهم ، ورقة أخلاقهم
ونباهتهم وذكائهم ، وحسن نظرهم ، وجودة قرائحهم ، ولطافة
أذهانهم وحدة أفكارهم ، وتفوذ خواطرهم . يونانيون
في استنباطهم للمياه ، ومعاناتهم لضروب الغراسات ، واختيارهم
لاجناس الفواكه وتديبيرهم لتركيب الشجر وتحسينهم للبساتين
بأنواع الخضر ، وصنوف الزهر ، فهم أحكم الناس لاسباب
الفلاحة ، وهم اصبر الناس على مطاولة التعب ، في تجويد الاعمال ،
ومقاساة النصب في تحسين الصنائع ، وأخذق الناس بالفروسية ،
وأبصرهم بالطعن والضرب . وقال ابن حزم : ان أهل الاندلس
صينيون في اتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية ،
تركيون في معاناة الحروب ومعالجة آلاتها ، والنظر في مهماتها .
وقال ابن بسام : في جزيرة الاندلس اشرف عرب المشرق
افتتحوها ، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها ، فبقي النسل
فيها بكل اقليم ، على عرق كريم .

تسامح العرب

٧

العرب من أكثر الأمم تسامحاً مع المخالفين لهم في المعتقد والجنس واللسان ، ولولا تسامحهم أيام عزهم بالاسلام ، لم تبق بقية من الأمم المغلوبة في بلادها محتفظة بدينها ولسانها ومقدساتها ، وذلك لأن الشريعة السمحاء تقضى بالرفق والرحمة ، وعدم التعرض لدين المخالفين وأموالهم خصوصاً اذا كانوا أصحاب دين سماوى ، ولذلك اکتفوا من أهل الاندلس بجزية^(١) وتركوا

(١) هذا كتاب الصلح الذى كتبه عبدالعزيز بن موسى بن نصير لتدمير ابن غبدوش (غيدوس) الذى سميت باسمه تدمير اذ كان ملكها ونسخة هذا الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن غبدوش انه نزل على الصلح وان له عهد الله وذمته وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم الا يقدم له ولا لاحد من أصحابه ولا يؤخر ولا ينزع عن ملكه وانهم لا يقتلون ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين اولادهم ولا نسائهم ولا يكرهوا على دينهم ولا تحرق كنائسهم ولا ينزع عن ملكه ما تعبد ونصح وادى الذى اشترطنا عليه وانه صالح على سبع مدائن أوريوالة وبلنتلة ولقنت وموله وبقسرة واية ولورقة وانه لا يؤوى لنا أبقاً ولا يؤوى لنا عدواً ولا يخيف لنا أمنا ، ولا يكتم خبر عدو علمه ، وان عليه وعلى أصحابه ديناراً كل سنة وأربعة أمداد قح وأربعة أمداد شعير وأربعة أقساط طلا (شراب من العنب غير خمر وهو أشبه بالصليبية في بلاد الشام) وأربعة أقساط خل وقسطى عسل وقسطى زيت ، وعلى العبد نصف ذلك شهد على ذلك عثمان بن أبى عبدة القرشى وحبيب بن أبى عبيدة . . . ابن ميسرة الفهمى وأبو قائم الهدلى وكتب في رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة .

لهم حريتهم ، فأعجب بهم مخالفوهم ، لانهم حملوا اليهم سلاماً ،
وكفوهم مؤونة فتن كانت عليهم غراماً ، تأتي على الانفس
والنفاس . وتذك معالم الامن والامان .

كره العرب التعصب ولا سيما في الاندلس وعمدوا الى كل
تسامح معقول فاستمالوا بسيرتهم من نزلوا بينهم من الاسبانيين
والبرتقاليين حتى انهم كانوا (سيديليو) اذا شجر خلاف بين مسلم
ومسيحي من الجند ، يعطي الحق غالباً للمسيحي ، وجعلوا ايام الاحاد
ايام عطلة ، بدل الجمع ، ورفضوا ان يتعبد كل انسان على الصورة
التي يراها ، فنشأت وحدة وطنية بين الغالب والمغلوب ، حتى لم
يكد يشعر هذا الا في النادر وباغراء رجال الدين ، انه مغلوب على
أمره ، فاقد لاستقلاله ، واعتمد الامويون في أكثر أيامهم على
جيش من الصقلية أهل صقلية يشترونهم أو يأخذونهم أسرى
كما كان يفعل العثمانيون بجيش الانكشارية وصارت لافراد من
الصقلية حظوة عند الملوك والامة حتى ان حبيباً الصقلبي من
فتيان الاموية بقرطبة ألف كتاباً تعصب فيه لقومه سماه (بالاستظهار
والمغالبة على من أنكر فضائل الصقلية) وربما كانت منزلة الصقلية
بقرطبة منزلة الشعوبية أعداء العرب في بغداد ولا من ينكر عليهم .
ومن أثر التسامح ، شاعت اللغة العربية في كل أرض نزلها العرب .
بل لم يمض أكثر من نصف قرن حتى اضطر رجال الكنيسة ان
يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها المسيحيون ، لان هؤلاء زهدوا

في اللغة اللاتينية ، ونشأ لهم غرام بالعربية ، فأخذوا يتقنون آدابها ،
ويتغنون باشعارها ، ويكتبون فيها كأبنائها ، ويعجبون ببلاغتها
إعجاب أهلها بها .

وكان كثير من أذكىء الجلائقة والقشتاليين والليونيين
والنافاريين ، دع من كانوا في البلاد التي فتحتها العرب من المسيحيين ،
يتعلمون العربية ويقصدون الخليفة الاندلسي أو أحد رجاله
يستخدمون في الادارات ، وتجري على سادات الاسبان أحكام
الاسلام فيختلطون باشراف العرب ، ومن ظل محتفظاً منهم
بدينه نسي مبادئه فصار يحجب نساءه كالمسلمين ، ويقتدى
بأزيائهم وأأسرتهم وعاداتهم ، في مآذبهم ورفاهيتهم وأنسهم . ومن
المسيحيين والاسرائيليين من وزروا في الاندلس ملوك المسلمين
وهم مقيمون على دينهم ومنهم من كان أبوه أوجده اسبانياً
فاسلم (١) والمسلمون لا يضمنون بشيء على أهل ذمتهم يجرون عليهم
الرواتب والارزاق ، كما تجرى على بطانتهم وأهل نخلتهم ويأمنونهم
على مصالحهم ، وينتدبونهم في سفاراتهم . ويطلعونهم على
أسرارهم ، ويأمنون الاطباء منهم على ارواحهم وحرمتهم

وشاع زواج العرب بالاسبانيات والبرتغاليات اللاتي كن
بجماهن ، أجل صلة لتمام الفاتحين بخصوصهم ، والتحام القرابات
بينهم ، بل أن ملوك المسيحيين على عهد توزع الاندلس بين ملوك
الطوائف ، أمسوا يتزوجون من بنات الامراء المسلمين ، فقد تزوج

(١) راجع نبذة في امتزاج العرب بالعجم في اسبانيا والاستشهاد على ذلك
بالاسماء والالقاب في كتاب (السفر الى المؤتمر) .

الفونس السادس بزائدة ابنة أمير أشبيلية ، وعقد مثل هذا الزواج كثيراً ، وكان عدد المتزوجات من الاسبانيات والبرتغاليات بالمسلمين وعدد المسلمات المتزوجات من الاسبانيين والبرتغاليين آخر أيام الاندلس كثيراً جداً حتى جرى لذلك كلام في الشروط التي تمت بين الغالب والمغلوب .

ومن العرب من آثر زي الاسبانيين من الملابس والسلاح واللجم والسروج وكلف بلسانهم مثل محمد بن سعد بن مردنيش صاحب بلاد شرق الاندلس (٥٦١) وكثير من الوزراء كانوا يعرفون لسان جيرانهم مثل محمد بن الحاج (٧١٤) ويتشبهون بهم في الاكل والحديث وكثير من الاحوال والهيئات .

هذا ما عمله الغالبون المسلمون من العرب مع المسيحيين المغلوبين من الاسبان والبرتغاليين ، أما معاملتهم للاسرائيليين فكانت أيضاً مما يدهش له ، فأصبح هؤلاء في الاندلس منزلة سامية في العلم والصنائع والتجارة ، وكانت غرناطة في القرن العاشر تدعى مدينة اليهود لكثرتهم ومكانتهم فيها .

أصبح أهل البلاد يتكلمون بالاسبانية والبرتغالية والعربية على السواء وأخذوا بعد حين لا يتعاقدون بينهم إلا باللغة العربية وقد وجد من عقودهم نحو الف صك من هذا القبيل كتبها المستعربة من الوطنيين الاصليين باللغة العربية ، والعربية كانت لسان القائمين بالدولة الاسلامية ، هجر ما عداها في جميع الممالك ، فصار استعمال

اللسان العربي من شعائر الاسلام وطاعة العرب . هجر الامم لغاتهم
وألسنتهم في جميع الامصار والممالك التي خفقت عليها رايات الفاتحين ،
وصار اللسان العربي لسانهم ، حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم
ومدنتهم ، وصارت الالسنة العجمية دخيلة فيها ، وغريبة عنها ، قاله
ابن خلدون :

ولذا أتت ثلاثة قرون على بقايا الاسبانيين المتراجعين الى
الجبال الشمالية وقد نسيت تقاليد البلاد إلا من استوريا وما اليها
من الاصقاع واضطرت الحكومات الصغرى التي اعتصمت في أقصى
الشمال أن تصانع وتعاهد وتتعلم من أعدائها ، وهم أرقى منها نظاماً
ومدنية وحكومات أوربا الكبرى لذلك العهد تطلب رضاها وتتعلم
منها وتتلطف معها ، حتى بلغ الامر بعبد الرحمن الثالث الذي أشبه
ملكاً من ملوك هذا العصر لا ينقاد لا وهام العنصر والدين ، ولا
يتوقف في أمر فيه مصلحته ، وتسير سياسته بحسب الاحوال
— ان وجد له حلفاء من زعيم البربر الى ملك ايطاليا الى امبراطور
القسطنطينية وكانت سفراء فرنسا واليونان والالمان تتوارد على
قرطبة ، وقد وضع هذا الخليفة حداً للحروب بين العرب والاسبانيين
والبربر في الاندلس ، وحصن حدود مملكته من ملوك ليون
وقشتالة ونافار واستولى باسطوله على غربى البحر المتوسط ،
وبسط سلطانه على افريقية الشمالية فكان ميسين^(١) العلوم

(١) ميسين هو نديم أغسطس قيصر الرومانى استعمل نفوذ مولاة لتنشط
الآداب والعلوم فاعقدق نعمه على فرجيل وهوراس وبروبوس وأصبحت كلمة
ميسين مرادفة لحامى الآداب والعلوم والفنون ومات فى السنة الثامنة قبل المسيح .

والفنون وحامى التجارة والصنائع وقد أصبحت اسبانيا العربية على عهده وعهد اخلافه فى القرون الوسطى أكثر البلاد مدنية وحسن ادارة قائته دائرة المعارف الاسلامية .

لاجرم أن خلفاء الاندلس كانوا من التسامح مع الكافة بالمكان الذى يغبطون عليه ، ويجب التنويه به ، لأنه لم يسبق له نظير فى عصورهم عند الامم الاخرى ، فقد جاء من خلفائهم من كانوا يبيحون لدعاة النصرانية أن ينشروا دينهم أحراراً وبلغت الحال ببعض المتحمسين منهم ، ان كانوا يقفون على أبواب الجوامع ليتسقطوا المسلمين بالدعوة الى دينهم ، وكان عبد الرحمن الثانى عزم أن يجمع مجعاً مقدساً من النصارى برئاسة رئيس أساقفة اشبيلية لقمع عادية التعصب الاسباني إذ أخذ دعاة الدين المسيحى يسبون الاسلام جهاراً حتى يقتلوا فى سبيل دعوتهم ، وتكتب لهم الشهادة بزعمهم ، ولكن الخليفة مات قبل التمام هذا المؤتمر سنة ٢٣٨

ولطالما ارخى خلفاء الاندلس العنان لخطبائهم ووعائهم ومؤرخيهم وكتابهم يوسعون المجال لاقلالهم وألسنتهم ، حتى فى أعمال الخلفاء ، ولا يجدون منهم إلا لطفاً وعظماً ، ذلك ان الناصر كان كلفاً بعمارة الارض ، وإقامة معالمها ، وتكثير مياهها ، واستجلابها من أبعد بقاعها ، وتخليد الآثار الدالة على قوة ملكه ، وعزة سلطانه ، وعلو همته ، فانه لما ابنتى الزهراء . واستفرغ

وسعه في تنجيدها واتقان قصورها ، وزخرفة مصانعها ، انهمك
في ذلك حتى عطل الجمعة بالمسجد الجامع ، فقرعه القاضي منذر
ابن سعيد قاضي الجماعة بمقرطبة بخطبة على المنبر امام جمهور المؤمنين
ابتدأها بقوله تعالى (اتبنون بكل ريم آية تعبثون ، وتتخذون
مصانع لعلكم تخلدون ، واذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله
وأطيعون ، واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بالنعام وبنين ،
وجنات وعيون ، انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) ثم أفضى
الى ذكر المشيد ، والاستغراق في زخرفته ، والسرف في الانفاق
عليه ، فجرى في ذلك طلقاً ، وتلا فيه قوله تعالى (أفمن أسس
بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ، أم من أسس بنيانه
على شفا جرف هار ، فانهار به في نار جهنم ، والله لا يهدى القوم
الظالمين ، لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة في قلوبهم ، الا أن
تقطع قلوبهم والله عليم حكيم) وأسرف الخطيب في ترويع الخليفة
وتقريعه ، ولم يحسن السياسة في وعظه ، فاستشاط الخليفة غضباً ،
واقسم أن لا يصلى خلف الخطيب الجمعة أبداً فقال له ابنه : وما
الذى يمنعك عن عزل منذر بن سعيد والاستبدال به فزجره
أبوه واتهره وقال : أمثل منذر بن سعيد في فضله وورعه وعلمه
وحلمه لا أم لك يعزل في ارضاء نفس ، نا كبة عن الرشد .

دثال آخر : شنع أحد المؤرخين على أحد الملوك المعاصرين
في الاندلس ، فحنق ابن الملك وهم بقتل المؤرخ ، فلما شعر أبوه

بذلك قال له اليك عن هذا الفكر الخبيث ولئن قتلته لا كونن أنا
المطالب بدمه . تقتله ليعيرنا الناس باننا نقتل مؤرخينا . حتى إذا
مضت أيام دخل المؤرخ الحمام ليستحم ، فلما خرج ليلبس ثيابه ،
رأى فيها صرة تضم ألف دينار ، ورقعة من الملك يقول فيها : ان
الذي أوصل اليك هذه الدراهم وأنت لا تشعر ، قادر ان يرسل
اليك من يقتلك فكفّ غرب لسانك عنا واذا عدت فأرخت ثانياً
لا تشنع علينا أعمالنا . قال دوزى اذا قيست حرية العرب بحرية
الافرنج تشبه هذه الاستبداد .

وما زال هذا التسامح المحمود حتى انتقل ملك العرب في الاندلس
الى المرابطين والموحدين وكانوا افريقيين لا يخلون من شىء من
التعصب وليس فيهم تسامح الامويين العرب فتبدلت الحال بعض
الشيء ، وذهبت أو كادت طلاوة تلك المدنية التي أقاموها
وكانت لا بالغربية ولا بالشرقية فبهر خبرها ومخبرها لولا أن قام
الملوك من بنى نصر في غرناطة ، ورأبوا الصدع ، وجبروا
الكسر ، وكانوا كلما صغرت رقعة ملكهم ، زادت الرقعة الباقية
ارتقاء ، فتمتقل القوة والنفوس من بلد زال عنها سلطانهم ، الى بلاد
يرفرق عليها علمهم ، ويزيد ملوكهم تسامحاً مع ذمتهم ومجاوريتهم ،
وهمة في تعهد صناعاتهم وزراعتهم وعمران مدنهم التي حصنوها
بالعدل والاحسان

العرب والاسبان



قال بعضهم لو لم يقم كلوفيس (١) بحروب دينية في القرن الخامس لتعذر على المسلمين فتح اسبانيا. ونحن نقول لو لم يفتح العرب الاندلس ويحمل اليهم عبد الرحمن الأموي مدنية قومه لتأخرت المدنية الحديثة قروناً عن الظهور في ربوع أوروبا (٢) وقد أجمع المنصفون أن العرب لو لم ينجلوا عن الاندلس لكانت حال اسبانيا اليوم أرقى مما هي بمراحل ولا يؤمل لهذا الشعب وقد رأى صنوف العذاب من رجال الدين ورجال الحكم، وأكلت نواغيه الحروب والاستعمار وديوان التفتيش الديني، أن تنشأ له نهضة كنهضة إيطاليا في القرن الخامس عشر تنتقل منها إلى أوروبا بأسرها. وان المرء اذا نزل اسبانيا اليوم ليشعر ولا سيما في القسم

(١) كلوفيس (٤٦٥ — ٥١١) ملك الفرنجة (فرنسا) سنة ٤٨١ افتتح صقع باريز واستخلصه من أيدي الرومان سنة ٤٨٦ واستولى على ولاية الاكيتين من الفيزيغوت وغلب الالمان سنة ٤٩٦ والبورغوند سنة ٥٠٠ ودان مع أمته بالنصرانية سنة ٤٩٦ فكان أول من حدد بلاد غاليا (فرنسا) في دينها وسياستها.

(٢) من تاريخ الكنيسة تعريب هنرى جيب قال موسهليم الجرمانى : حق علينا ان نقول ان العرب ولا سيما عرب اسبانيا هم أصل وينبوع كل معرفة في الطب والفلسفة والفلك والتعاليم التي نزلت في أوروبا منذ القرن العاشر فصاعداً .

الجنوبي منها أنه في بلاد عربية لو كان لسان القوم العربية. ويرى كثيراً من السحنات أشبه بوجود العرب منها بوجود الأمم اللاتينية. وبعض عاداتهم وطبائعهم تنم عن روح عربية على سعى رجال الدين في نزاعها من بينهم، منذ استعاد الأسبان أرض الأندلس أواخر المئة التاسعة. لاجرم أن أربعة قرون ونصفاً لم تكف لأن تنزع من القوم ما تأصل فيهم في ثمانية قرون وتمثله وتمثل بهم من مدينة العرب.

ذكر بعضهم أن في الأندلس أهم آثار إسبانيا، والأندلس من إسبانيا بمثابة إقليم البروفانس في جنوبي فرنسا وصقلية من إيطاليا، وقد جمعت الأندلس جميع المحاسن والغرائب المبعثرة في طول إسبانيا وعرضها؛ ولهجة الأندلس ماثلة إلى العربية كثيراً والاحتفالات والاخلاق قد حفظت فيها الأساليب العربية.

نعم لا تزال تسمع في اللغة الإسبانية كثيراً من الألفاظ العربية من أسماء البلاد والأنهر والنواحي وبعض المرافق والمصطلحات، وكل كلمة تبدأ عندهم بأل التعريف العربية هي عربية لا محالة، ومن الأسماء ما يبدأ ببني ومنها ما يبدأ بوادي فدخلت مئات من الألفاظ في اللغة الإسبانية وتأصلت فيها كما دخلت البرتغالية والإيطالية والفرنسية لغات الأمم اللاتينية، وهي ظاهرة كل الظهور في اللغة الإسبانية وأقل منها في اللغة البرتغالية وإلى اليوم تسمع بوادي الرامة ووادي الحجارة ووادي

القنال ووادي البيضاء ووادي الكبير وقاعة وقلعة والرملة
وقصبة وقصر ومدينة وجنة والمدور والبطاقة والقنديل
والأنبيق والساقية والمنارة والربض والمسجد والرابع والشمسية
والفندق والمحراب ومئات غيرها أفردتها علماء اللغة منهم بالتأليف.
أخذ الأسبان عن العرب أشياء ظنوها بعدد من مصطلحات
أجدادهم وبنات أفكارهم ، وتأصلت فيهم من حيث يشعرون ولا
يشعرون . حدثني الثقة ان أحد علماء المشرقيات من الأسبان وهو
موسيقار يحسن العربية ويطبع الآن كتاباً يثبت فيه بالأدلة
التاريخية ان الموسيقى الكنائسية في القرن الثالث عشر كانت
مقتبسة من الموسيقى العربية . ويخيل لمن يسمع الموسيقى
الاسبانية والغناء الاسباني ويرى الرقص الاسباني انها عربية الا
قليلاً بحيث ساع لنا أن نقول اذا كان الروسي شرقياً « تأورب »
واستغرب فالاسباني عربي شرقى « تأورب » واستغرب أيضاً
ولا تزال الى اليوم ترى كثيراً من النابيين من الاسبانيين
يدعون ان أصلهم عربي يذكرون ذلك مفاخرين ويعدون ذلك
من أمارات الشرف والتغنى بذكرى القديم الجميل . وقد رأينا
الاسبانيين في القرن التاسع عشر والعشرين نهضوا نهضة لا بأس
بها للبحث عن ماضيهم أو ماضي اسبانيا الاسلامية وصرخوا في ذلك
وقتاً ومالاً وتوفر على هذا العمل طائفة منهم حرصوا أجملاً حرص
على الأخذ من المدينة العربية ليكفروا عن سيئات أجدادهم

الذين عوروا بعملهم مصانع العرب وخططهم وحرقوا ومزقوا أسفارهم وآثارهم.

أذكر مثالين من هذه النهضة يعدان في الباب الأول من أبواب تسلسل الفكر الراقي والدؤوب المحمود وهو مما يقتل الآن فينا بعد أن أورتنا الاسبانيين أخلاقنا وطباعنا واليكم البيان : قال لي الأستاذ الاب آسين بلاسيوس مدرس العربية في جامعة مجريط وأحد أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق وأنا أنظر خزانة كتبه : جمع أكثر هذه الخزانة أستاذي ريبيرا وفيها كتب كثيرة مطبوعة وأهمها الجزرات « الفيش » التي رتبها طول حياته وفيها أسماء ثلاثين ألف عالم من علماء الاندلس وقد استنسخها البرنس ليوني كائتاني الايطالي صاحب تاريخ الاسلام الكبير ليظبعها في جملة ما يطبع من آثار العرب . قال : لما كنت في بلدي وجئت مجريط لأعمل مع أستاذي أحمل ما تيسر لطالب جمعه من الكتب ضمنت مجموعتي الى مجموعته في هذه الدار ولما حانت وفاته وكان عزباً أوصى لي بكتبه على أن أستغل بها مدة حياتي وأفتح أبوابها لطلاب الاستشراق ثم أتركها كما تركها هو لمن أرى فيه الكفاءة للعمل بعدي أو أجعلها في إحدى دور الكتب العامة .

هذا هو المثال الأول والمثال الثاني مجموعة السنيور اوسما Osma ناظر مالية اسبانيا سابقاً وهي من الفسيفساء والقيشاني الاسباني والسلاح والرخام والسجاد والادوات والاواني الفضية

والزمردية والاوانى الخزفية والبلورية والالبسة والنقوش
والتصاوير والاعمال الخشبية والنقود العربية والاسبانية ذهبية
وفضية ونحاسية من صنع عرب الاندلس وصنع اسبانيا المسيحية
في القرون الوسطى هذا عدا وثائق تاريخية وسجلات من القرن
السادس عشر من الآثار النصرانية وقد بدأ بجمع هذه المجموعة
عم السنيور اوسما والد زوجته وأحد أشرف اسبانيا منذ زهاء
خمسين سنة ودامت ابنته بعده وزوجها يطرسان على آثار هذا
المغالى بالآثار الاسلامية والنصرانية . ولما جاءتها الوفاة أوصت
بالقسم الذى جمعته فى حياتها والذى ورثته عن أبيها لزوجها
السنيور اوسما على أن تدعى المجموعة كلها باسم لقب والدها
فسميت مجموعة بجمع بلنسية للدون خوان

Justituto de Valencia de Don وصحت عزيمة الوزير الاسبانى
أن يضيف الى المجموعة ما جمعه فى حياته ويجعله فى دارين بناهما
فى أهم أحياء مجريط Juan الحديثة فبنى الدار الأولى على الطراز
الاندلسى والثانية على الطراز المسيحى فى القرون الوسطى
وكلا الدارين متلاصقان جعلت كل مجموعة فى الدار التى تناسبها
فأصبحت الداران متحفاً مرتباً ترتيباً علمياً راقياً بمعرفة صاحبها
الآن وإشارة من يختلف الى داره من غلاة العاديات والآثار
وحملة العلوم والفنون الذين يضمهم فى ناديه مرة فى الاسبوع

يتفاوضون الصناعات والنفائس . وقد وقف الوزير المولع بالآثار مؤخراً مجموعته البديعة وأقام عليها خمسة من الامناء منهم الاستاذ آسين المشار اليه ووقف عليها مبلغاً من المال لا يقل عن خمسة ملايين بستاس أو نحو عشرة ملايين فرنك بحسابنا اليوم وأعطاه خزانة كتبه البالغة ألفي مجلد على أن تبقى مجموعته ويزاد فيها ليدرس تاريخ الصنائع والفنون في اسبانيا وقد توخى في وصيته تنشيط الطلبة الوطنيين والاجانب على درس هذا الفرع من العلم في اسبانيا وخص المولعين بهذا الشأن من الانكليز ممن يصرفون مدة في مجريط لهذا الغرض يدرسون مجموعته فيعاونهم معاونة مالية وخص من الانكليز طلبة جامعة كسفورد لانه درس فيها في صباه فأراد أن يعنى عناية خاصة بمن يتخرجون فيها .

هذان مثالان من عناية الخلف بآثار السلف ولو قام في أذهان خاصة الاسبان مثل هذه الافكار منذ جلاء العرب عن بلادهم لكانت اليوم مجاميعهم ومجموعاتهم أعظم ثروة خلفتها أمة مغلوبة لامة غالبية ولعدت في اسبانيا من أكبر موجبات فخرها كما تريح ولايات الاندلس اليوم من بقايا الآثار العربية التي يقصدها السياح من عامة أقطار الارض

العلم في الاندلس

٩

قال لنا الدكتور روزيه^(١) رئيس جامعة لوزان في سويسرا سابقاً اني طوفت بلاد الاندلس ورأيت آثارها الباقية من عهد العرب ، فأعجبت بها كل الاعجاب ، ومما شهدته السدود القائمة الى اليوم في ولاية بلنسية ، فان أهل هذه الولاية من الاسبان اليوم يعيشون بفضل هندسة مهندسي العرب لهذه السدود ، ولم يتيسر لمدينة القرن العشرين أن تقيم أرقى مما أنشأه أبناء جنسكم في القرون الوسطى ، ولحسن الحظ لم يقو التعصب الديني الذي دك كثيراً من المعالم في أرض أندلس على نفس هذه السكور على وادي الأحمر وغيرها والا هلك أهل ذاك الاقليم عطشاً ، ومن الاسف ان مدينة هذه بعض آثارها تذهب ولا من يبكيها ، فقبح من قضا عليها ، وأوصلوكم الى ما أنتم عليه من الانحطاط .

جملة لا يزال صداها يتردد في أذنا منذ فاوهنا بها العالم السويسري من بضع سنين وقد ذكرنا بها عهد الاندلس وعهد عمرانه الزاهر ، وارتقائه الباهر ، ذكرنا بالامس أمة عربية أوروبية تشبه

(١) من محاضرة « العرب في الاندلس » القاها في النادي العربي بدمشق مساء

الغربيين في تصوراتها وآدابها وعلومها ، ولكنها شرقية عربية
مسلمة باقامة شعائر دينها وأخلاقها وعاداتها ، وقلنا اننا معاشر العرب
على كثرة عنايتنا أيام عزنا بتقويد علوم ديننا ولساننا وما الى
ذلك ، لم نكن في العناية بالعلوم التي هي اليوم العلوم الحقيقية
كالرياضيات والطبيعات والكيمياء والفلسفة والطب والفلك دون
ذلك بكثير ، والا لما قامت مصانع الاندلس على النظام الذي
يرى الناس أثره ويعجبون به على اختلاف العصور ، ولما أعجب
الاستاذ روزيه اليوم بهندسة العرب لسدود بلنسية الباقية لعهدنا ،
بعد انقراض دولة العرب من تلك البلاد زهاء أربعة قرون .

ولقد حدث الثقات ان الغربيين من المجاورين للاندلس
كالفرنجة أي الفرنسيين والالمان وسكان برومية أي الطليان
وكانوا أمثال الافرنج مدنية لذك العهد لم يكونوا الا دون جيرانهم
عرب الاندلس في العلم وأعمال العمران والصناعات والزراعة ولولا
علماء الكيمياء والهندسة والنبات والطب من العرب لتأخرت
المدنية في أوروبا زمنًا طويلا .

ولذلك كانت الاندلس في عهد العرب كعبة العلم يحج اليها
أذكياء الطلاب من فرنسا وايطاليا وغيرها كما يحج اليوم طلاب
العلم الى كليات فرنسا والمانيا وانكلترا والبلجيك وسويسرا
وهولاندة

أخذ عشرات من الافرنج العلوم عن عرب الاندلس

وترجموها باللاتينية ومنها ما فقد أصله العربي اليوم وبقيت ترجمته فقط (١). وأن العلوم التي تلقاها جربرت الذي أصبح بابا رومية باسم سلفستر الثاني عن عرب الاندلس كانت موضوع اعجاب معاصريه حتى أنهموه بالسحر .

كانت الاندلس قبل أن تغلب بنى أمية عليها سنة ٩٢ هـ خالية من العلم لم يشتهر عند أهلها أحد بالاعتناء به ، إلا إنه يوجد فيها طلسمات قديمة في مواضع مختلفة وقع الاجماع على أنها من عمل ملوك رومية اذ كانت الاندلس منتظمة بمملكتهم . ولما استقر الامر لبني أمية عنى جماعة من أهلها بطلب الفلسفة ونالوا أجزاء كثيرة منها وفي أيام الامير الخامس من بنى أمية وهو محمد بن عبدالرحمن أي في أواسط المئة الثالثة تحرك أفراد من الناس الى طلب العلوم أى غير علوم الشريعة واللغة ولم يزالوا يظهر ون ظهوراً غير شائع الى قريب وسط المائة الرابعة .

ذلك لان رجال الدين كانوا أصحاب صولة وتأثير في النفوس ، ومن عادة من جهل شيئاً أن يعاديه ، فتوهم بعضهم ان هذه العلوم الدنيوية مدرجة الى الزهد في العلوم الاخروية ، فكانوا يشددون النكير على من يتعاطونها ، ولكن أكثر ملوك بنى أمية

(١) راجع ما كتبه هوار في تاريخ العرب في أسماء نقلة الافرنج في العلوم عند العرب وما كتبه نالينو في كتابه علم الفلك عند العرب المطبوع في رومية .

ومن بعدهم من ملوك الاندلس ، كانوا أعقل من أن يطاوعوهم
في النيل ممن يريدون الايقاع بهم ، لمخالفتهم لهم في العلوم التي
يمتون بها .

اشتهر بين وسطي المئة الثالثة والرابعة من العلماء أبو عبيدة
مسلم البلنسي المعروف بصاحب القبلة كان عالماً بحركات الكواكب
وأحكامها وصاحب فقه وحديث ومنهم يحيى بن يحيى المعروف
بابن السمينه من أهل قرطبة كان بصيراً بحساب النجوم والطب
وغير ذلك ، متصرفاً في العلوم ، متفنناً في ضروب المعارف ، وكان
معتزلي المذهب ، توفي سنة ٣١٥ ومنهم محمد بن اسمعيل المعروف
بالحكيم وكان عالماً بالحساب والمنطق نحوياً لغوياً توفي سنة ٣٣١
انتدب الامير الحكم في أيام أبيه عبد الرحمن صدر المائة
الرابعة الى العناية بالعلوم فاستجلب من بغداد ومصر وغيرها من
ديار الشرق عيون التواليف الجميلة في العلوم القديمة والحديثة ،
وجمع منها في بقية أيام أبيه ثم في مدة ملكه ما كاد يضاها ما جمعه
ملوك بني العباس في الأزمان الطويلة ، فكثرت تحريك الناس في أيامه
الى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذاهبهم .

وقام بعده ابنه هشام فعمد الى خزائن أبيه الحكم الجامعة
للكتب المذكورة وغيرها وأراد استخراج ما فيها من ضروب
التأليف بمحضر خواص من أهل العلم بالدين وأمرهم باخراج
ما في جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة في علوم المنطق وعلم

النجوم وغير ذلك من علوم الأوائل حاشا الطب والحساب وأمر
بأحراق ما عدا ذلك وافسادها فاحرق بعضها ، وطرح بعضها في آبار
القصر ، وهيل عليها التراب والحجارة ، وغيرت بضروب من
التغاير ، فعل ذلك تحبباً الى عوام الاندلس وتقيحاً لمذهب الخليفة
الحكم عندهم ، اذ كانت تلك العلوم مهجورة عند اسلافهم ، مذمومة
بالسنة رؤسائهم ، وكان كل من قرأها متهماً عندهم بالخروج عن
الملة ، ومظنوناً به الا لحاد في الشريعة ، فسكن أكثر من كان تحرك
للحكمة عند ذلك ، واضمحت نفوسهم ، وتستروا بما كان عندهم
من تلك العلوم ، ولم يزل أولو النباهة من ذلك الوقت يكتمون
ما يعرفونه منها ويظهرون ما تجوز لهم فيه من الحساب والفرائض
والطب وما أشبه ذلك الى أن انقرضت دولة بني أمية من
الاندلس .

قال هذا القاضي صاعد وتؤيده رواية ابن سعيد في المغرب
قال : وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء ، الا الفلسفة والتنجيم
فان لها حظاً عظيماً عند خواصهم ، ولا يتظاهر بها خوف العامة ،
فانه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه
العامة اسم زنديق ، وقيدت عليه نفاسه ، فانزل في شبهة رجوه
بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان
تقرباً لقلوب العامة ، وكثيراً ما يأمر ملوكهم بأحراق كتب هذا الشأن
اذا وجدت وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه

وان كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن على ما ذكره
الحجاري .

قال ابن حزم : وأما كتب الفلسفة فاماها في عصرنا أبو الوليد
ابن رشد القرطبي وله فيها تصانيف جردها لما رأى من انحراف
منصور بنى عبد المؤمن عن هذا العلم وسجنه بسببها وكذلك
ابن حبيب الذي قتله المأمون بن منصور المذكور على هذا العلم
باشبيلية وهو علم ممقوت بالاندلس لا يستطيع صاحبه اظهاره ،
وكان مطرف الاشبيلي قد اشتغل بالتصنيف في علم النجوم ،
الا أن أهل بلده كانوا ينسبونه الى الزندقة بسبب اعتكافه على
هذا الشأن ، فكان لا يظهر شيئاً مما يصنف .

وقال أيضاً من رسالة أهل قرطبة : انهم من التمكن في علوم
القرآت والروايات فقط وكثير من الفقه والبصر بالنحو والشعر واللغة
والخبر والطب والحساب والنجوم بمكان رحب الفناء ، واسع العطن ،
متنأى الاقطار فسيح المجال . وقد ذكر ابن حزم في رسالته هذه
من نبغ في الاندلس من المؤلفين في علوم الدين والنسب والتاريخ
والطب وعد بعض كتبهم قال : وأما الفلسفة فاني رأيت فيها
رسائل مجموعة وعيوناً مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطي دالة على
تمكنه من هذه الصناعة واما رسائل أستاذنا أبي عبد الله محمد بن
الحسن المذحجي في ذلك فمشهورة متداولة ، وتامة الحسن ،
فائقة الجودة عظيمة المنفعة . وقال لم يؤلف في الازياج مثل زيح

مساعدة وزيج ابن السمح ، وهما من أهل بلادنا وكذلك أحمد بن نصر .

وقال آخر : وأما كتب علم الموسيقى فيكتاب أبي بكر بن باجة الغرناطي من ذلك فيه كفاية ، وهو في الغرب بمنزلة أبي نصر الفارابي بالشرق واليه تنتسب الالخان المطربة بالاندلس التي عليها الاعتماد ، وليحيي الخدج كتاب الاغاني الاندلسية على منزع الاغاني لابي الفرج ، وهو ممن أدرك المئمة السابعة قال صاعد : ولما افترق الملك في صدر المائة الخامسة من الهجرة بين ملوك الطوائف واقتعد كل منهم قاعدة من أمهات البلاد ، فاشتغل بهم ملوك الحاضرة العظمى قرطبة من امتحان الناس ، واضطرت الفتنة الى بيع ما كان بقصر قرطبة من ذخائر ملوك الجماعة من الكتب وسائر المتاع ، فبيع ذلك باوكس ثمن ، واتفه قيمة ، انتشرت تلك الكتب بأقطار الاندلس ، ووجد في خلالها اعلاق من العلوم القديمة ، كانت أفلتت من أيدي الممتحنين بحركة الحكيم أيام المنصور بن أبي عامر وأظهر أيضاً كل من كان عنده من الرعية شيء ما كان لديه منها ، فلم تزل الرغبة ترتفع من حين ذلك في طلب العلم القديم شيئاً فشيئاً ، ثم أبيضت تلك العلوم الى أن زهد الملوك فيها وفي غيرها فقل طلاب العلم وصاروا افراداً بالاندلس .

فمن اعلام هذه العلوم على ذلك العهد أبو غالب بن عبادة الفرائضي

كان مشهوراً بعلم العدد وأبو أيوب عبد الغافر بن محمد أحد المهرة
بعلم الهندسة . وعبد الله بن محمد المعروف بالسري كان عالماً
بالعدد والهندسة وكان ينسب إليه العلم بصناعة الكيمياء ومنهم
أبو بكر بن أبي عيسى كان مقدماً في العدد والهندسة والنجوم
وسائر العلوم الرياضية فكان يجلس لتعليم ذلك في أيام الحكم .
وعبد الرحمن بن اسمعيل بن زيد المعروف بالاقليدي كان متقدماً
في علم الهندسة معتنياً بصناعة المنطق وأحمد بن حماد القرطبي
(٣٣١) عالم بالحساب والهندسة وأبو القاسم أحمد بن محمد العدوي
كان معلماً بعلم العدد والهندسة نافذاً فيها وأبو عثمان سعيد
ابن فتحون بن مكرم المعروف بالخمّار السرقسطي كان محققاً
اماماً في علم النحو واللغة ، وله تأليف في الموسيقى ورسائل في
الفلسفة . وأبو القاسم مسلمة بن أحمد المعروف بالمرحيط كان أمام
الرياضيين في الاندلس في وقته ، واعلم ممن كان قبله بعلم الافلاك ،
وكانت له عناية بارصاد الكواكب وله كتاب حسن في تمام علم
العدد وهو المعنى المعروف بالمعاملات ، وكتاب اختصر فيه
تعديل الكواكب من زيح البتاني ، وعنى بزيج محمد بن موسى
الخوارزمي ، وصرف تاريخه الفارسي الى التاريخ العربي ، ووضع
أوساط الكواكب لأول تاريخ الهجرة وزاد فيه جداول حسنة
توفي في سنة ٣٩٨ وقد أنجب تلاميذ جلة ، ولم ينبج عالم بالاندلس
مثلهم ، فمن أشهرهم ابن السمح وابن الصفار والزهر اوى والكرماني
وابن خلدون

فاما ابن السمح القاسم أصبغ بن محمد بن السمح المهندس
فكان متحققاً بعلم العدد والهندسة متقدماً في علم هيئة الافلاك
وحركات النجوم ، وكانت له مع ذلك عناية بالطب وله تواليف
حسنة في الهندسة وعمل الاسطرلاب والازياج ، ومنهازيجه الذي
ألفه على أحد مذاهب الهند المعروف بالسند هند توفي سنة ٤٢٦
وأما ابن الصفار فهو أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن عمر كان
متحققاً أيضاً بعلم العدد والهندسة والنجوم ، وقعد في قرطبة
لتعليم ذلك ، وكان له أخ يسمى محمداً مشهور بعمل الاسطرلاب ،
لم يكن بالاندلس قبله أجمل صنفاً لها منه .

وأما الزهراوى فهو أبو الحسن على بن سليمان كان عالماً بالعدد
والهندسة معتنياً بعلم الطب . وأما الكرماني فهو أبو الحكم عمرو
ابن عبد الرحمن من أهل قرطبة أحد الراسخين في علم العدد
والهندسة ، رحل الى الشرق وانتهى الى حران من بلاد الجزيرة
وعنى هناك بعلم الهندسة والطب ثم رجع الى بلاد الاندلس وجلب
معه الرسائل المعروفة برسائل اخوان الصفا ، ولم يدخلها أحد من
أهل الاندلس قبله ، ومحلّه من العلوم النظرية المحل الذي لا يجارى
فيه ، توفي بسرقسطة سنة ٤٥٨ وأما ابن خلدون (هو غير
عبد الرحمن بن خلدون المؤرخ) فهو أبو مسلم عمرو بن أحمد بن
خلدون الحضرمي من اشراف أهل اشبيلية في علوم الفلسفة
مشهور بعلم الهندسة والنجوم والطب ، مشبهاً بالفلاسفة في اصلاح

أخلاقه ، وتعديل سيرته ، وتقويم سياسته ، توفي سنة ٤٤٩
ومن مشاهير تلاميذ أبي القاسم أحمد بن عبدالله الصفار ابن
برغوث والواسطي وابن شهر والقرشي والامطش المرواني وابن
الطار فاما ابن برغوث فهو محمد بن عمر بن محمد المعروف بابن
برغوث كان متحققاً بالعلوم الرياضية مختصاً منها بإيثار علم الافلاك
وهيئتها وحركات الكواكب وارضادها وكان له مع ذلك تحقق
بعلم النحو ، ومعرفة القرآن والفقهاء والوثائق ، واشرف حسن على
سائر العلوم ، توفي سنة ٤٤٤ ، وأما الواسطي فهو أبو الاصبع عيسى
ابن أحمد أحد المتمكنين من علم العدد والهندسة والفرائض وقعد
بقرطبة لتعليم ذلك ، وله أيضاً بصر بجمل من علم هيئة الافلاك
وحركات النجوم ، وأما ابن شهر فهو أبو الحسن مختار بن شهر
الرعي كان بصيراً بالهندسة في النجوم متقدماً في اللغة والنحو
والحديث والفقهاء شاعراً متمكلاً ذا دهاء ومعرفة بالسير والتواريخ
وأما ابن الطار فهو محمد بن خيرة الطار فكان من تلاميذ ابن
الصفار متقناً لعلم العدد والهندسة والفرائض وله بصر بصناعة
النجوم وعناية بعلم حركاتها .

ومن مشاهير تلاميذ ابن السمح أبو مروان سليمان بن محمد بن
عيسى بن الناشء وهو بصير بالعدد والهندسة معتن بصناعة الطب
وأحكام النجوم وأبو جعفر أحمد بن عبد الله المعروف بابن الصفار
المتطب ومن نظراء هذه الطبقة عبدالله بن أحمد السرقسطي كان

نافذاً في علم العدد والهندسة والنجوم . وقعد لتعليم ذلك في بلده
توفي سنة ٤٤٨ ومنهم أبو اسحق ابراهيم بن أحمد بن ابراهيم
الاشبيلي كان بصيراً بعلوم البرهان واللسان والمساءلة متفنناً في ضروب
المعارف صنعا لطيف اليد توفي سنة ٤٢٠

ومن مشاهير أصحاب ابن برغوث ابن الليث وابن الجلاب
وابن حي فاما ابن الليث فهو محمد بن أحمد بن الليث كان متحققا
بعلم العدد والهندسة معنيا بعلم حركات الكواكب وارصادها
وكان مع هذا بصيراً بالنجوم واللغة والفقاه توفي سنة ٤٠٥ واما
ابن حي فهو الحسن بن محمد التجيبي من أهل قرطبة كان بصيراً
بالهندسة والنجوم كلفا بصناعة التعديل وله فيها مختصر على
مذهب السند هند وخرج من الاندلس سنة ٤٤٢ ولحق بمصر ثم
رحل الى اليمن واتصل بأمرها المسيحي وكان ملكه اذذاك يشتمل
على بعض أفريقية وجميع مصر والشام وجزيرة العرب والحجاز
وتهامه ونجد واليمن حظى عنده وتوفي سنة ٤٥٦ وأما ابن الجلاب
فهو الحسن بن عبد الرحمن المعروف بابن الجلاب أحد المتحققين
بعلم الهندسة وهيئة الافلاك وحركات النجوم وله مع ذلك عناية
بالمنطق والعلم الطبيعي .

ومنهم أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام بن خالد الكناني
المعروف بابن الزقشي من أهل طليطلة أحد المتفنين في العلوم
المتوسعين في ضروب المعارف من أهل الفكر الصحيح والنظر

الناقد والتحقق بصناعة الهندسة والمنطق والرسوخ في علم النحو
واللغة والشعر والخطابة والاحكام لعلم الفقه والأثر والكلام
وهو مع ذلك شاعر بليغ ليس يفضله عالم بالانساب والأخبار
والسير مشرف على جل سائر العلوم ومن نظراء هؤلاء أبو جعفر
أحمد بن خميس بن عامر بن منيح من أهل طليطلة أحد المعتمدين
بعلم الهندسة والنجوم والطب وهو من لدات القاضي أبي الوليد
هشام بن أحمد بن هشام وأبي اسحق ابراهيم بن لب التجيبي
المعروف بالقويدس قعد للتعليم بذلك زمنا وكان له بصر بعلم
هيئة الافلاك وحركات النجوم وتفوذ في العربية توفي سنة ٤٥٤
ومنهم محمد بن عبد الله بن مرشد مولى ابن طامس الوزير كان كاتباً
كامل الصناعة يجمع الى ذلك النبوغ في علوم كثيرة من الحساب
والتنجيم والهندسة توفي سنة ٤٤٨

وكان في القرن الخامس للهجرة افراد من الاحداث في الاندلس
مشتغلون بعلم الفلسفة ذوو افهام صحيحة وهم ربيعة فمنهم من سكان
طليطلة وجهاتها أبو الحسن علي بن خلف بن أحمرو أبو مروان عبد الله
ابن خلف الاستجي وأبو جعفر أحمد بن يوسف التهلاكي وعيسى
ابن أحمد بن العالم و ابراهيم بن سعيد السهيلي الاضطرابي. ومن أهل
سرقسطة الحاجب أبو عامر بن الأمير المقتدر بالله وأبو جعفر
أحمد بن جوشن. ومن أهل بلنسية أبو زيد عبد الرحمن بن سيد.
وأبرع هؤلاء في الهندسة علي بن أحمرو الصيدلاني وأبو جعفر

أحمد بن جوشن وأعلمهم بحركات النجوم وهيئة الأفلاك أبو اسحق ابراهيم بن يحيى النقاش المعروف بولد الزرقىال — والزرقىال نسبة لآلة سموها الزرقلة وهي صحيفة لرصد الكواكب — فانه أبصر أهل القرن الخامس بارصاد الكواكب وهيئة الافلاك وحساب حركاتها وأعلمهم بعلم الازياج واستنباط الآلات النجومية وأحمد بن يوسف يعرف بابن كباد (حماد؟) كان من أهل المعرفة بالعدد وصناعة النجامة وبنى ازياجه ومنها القبس والمستنبط على ارصاد أبي أسحق الطليطلى المعروف بالزرقالة وأما أبو عامر بن الأمير بن هود فهو مع مشاركته لهؤلاء في العلم الرياضى منفرد دونهم بعلم المنطق والعناية بالعلم الطبيعى والعلم الالهى .

وكان عبد الرحمن بن اسمعيل بن بدر المعروف بالاقليدس الاندلسى متقدما فى علم الهندسة معتنيا بصناعة المنطق . وموسى ابن ميمون الاسرائيلى الاندلسى قرأ علم الأوائل واحكم الرياضيات وشدا أشياء من المنطقيات وأبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة عالماً بعلوم الأوائل لم يبلغ أحد درجته من أهل عصره فى مصره وله تصانيف فى الرياضيات والمنطق والهندسة أربى فيها على المتقدمين قال القفطى الا أنه يتمسك بالسياسة المدنية وينحرف عن الأوامر الشرعية استوزره أبو بكر يحيى بن تاشفين مدة عشرين سنة وكانت وفاته فى سنة ٥٣٣

وممن اعتنى بصناعة المنطق خاصة من سائر الفلاسفة أبو محمد بن حزم القرشي وكان أبوه أحد العظماء من وزراء المنصور محمد بن أبي عامر ووزر لابنه المظفر وكان ابنه أبو محمد وزيراً أيضاً لعبد الرحمن المستظهر بالله ثم نبذ هذه الطريقة وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن وعنى بعلم المنطق . ومنهم أبو الحسن علي بن اسمعيل بن سيده الاعمى وكان أبوه أيضاً أعمى عنى بعلوم المنطق عناية طويلة وألف فيها تأليفاً كبيراً ذهب فيه الى مذهب متي بن يونس وهو بعدها أعلم أهل الاندلس قاطبة بالنحو واللغة والأشعار وله في اللغة تواليف جليلة منها المحكم والمحيط الأعظم والمخصص وشرح اصلاح المنطق وشرح كتاب الحماسة ٤٥٨

ومن أعاجيب النوابغ الاندلسيين الذين فقدوا بصرهم ولم يفقدوا بصيرتهم ابن الحنيط الكفيف الذي قال فيه ابن حيان انه كان أوسع الناس علماً بعلوم الجاهلية والاسلام بصيراً بالآثار العلوية عالماً بالافلاك والهيئة حاذقاً بالطب والفلسفة ، ماهراً في العربية واللغة والآداب الاسلامية ، وسائر التعاليم الاوائلية ، ولد أعشى ضعيف البصر ، متوقد الخاطر ، فقراً كثيراً في حال عشا ، ثم طفق نور عينيه بالكلية فازداد براءة ونظر في الطب بعد ذلك فانجح علاجاً وكان ابنه يصف له مياه الناس المستفتين عنده فیهتدى منها الى مالا یهتدى البصیر ولا یخطئ الصواب فی فتواه

ميراعة الاستنباط ، وتطب عنده الاعيان والملوك والخاصة
فاعترف له بمنافع جسيمة .

وأما العلم الطبيعي والعلم الألهي فلم يعن أحد من أهل
الاندلس بهما كبير عناية ومن المشتغلين بهما ابن النباش التيجاني
وأبو عامر بن الأمير بن هود وأبو الفضل بن حسداى الاسرائيلي .
وأما صناعة الطب فلم يكن بالاندلس من استوعبها ولا لحق
بأحد من المتقدمين فيها وأول من اشتهر منهم بالاندلس أحمد بن
اياس من أهل قرطبة ومحمد بن عبد الله الأوسط ويعرف
بالحراني ومنهم يحيى بن اسحق أحد وزراء الناصر لدين الله وسعيد
ابن عبد الرحمن بن محمد بن عبد ربه مولى الأمير هشام الرضى
ابن عبد الرحمن الداخل وهو ابن أخى أحمد بن محمد بن عبد ربه
الشاعر صاحب العقد وكان له بصر بحركات النجوم ومهاب الرياح
وتغيير الأهوية . ومنهم عمر بن بريق واصبغ بن يحيى وأحمد
ابن حكم بن حفصون وكان هذا طبيباً نبيلاً ، دقيق النظر ،
بصيراً بالمنطق ، مشرفاً على كثير من علوم الفلسفة ، ومنهم محمد
ابن تميم وأبو الوليد محمد بن الحسين المعروف بابن الكنانى كان
عالماً بالطب حسن العلاج ومنهم عبد الملك الثقفى كان عالماً بالطب
والهندسة وكان الطب أغلب عليه ومنهم عمر وأحمد ابنا يونس
ابن أحمد الحراني . ومنهم محمد بن عبدون الجبلى وكان قبل

ان يتطرب مؤدبا في الحساب والهندسة ومنهم سليمان بن حسان
المعروف بابن جلجل وعبدالله بن اسحق المعروف بابن الشناعة
المسلماني الاسرائيلي وأبو عبد الله محمد بن الحسين المعروف بابن
الكناني المظفر وكان بصيراً بالطب متقدماً فيه ذا حظ من
المنطق والنجوم وكثير من علوم الفلسفة ومنهم أبو العرب
يوسف بن محمد أحد المتحققين بصناعة الطب توفي سنة ٤٣٠
ومن أشهرهم أحمد بن ابراهيم الانصاري من أهل بلنسية
كان من أهل العلم بالفرائض والحساب لايجارى في التعاليم قعد
لتعليم الحساب والهندسة ٥٩٣ ومنهم أبو عثمان سعيد بن البغوش
عالم بعلم العدد والهندسة والطب ٤٤٤ ومنهم الوزير أبو المطرف
عبد الرحمن اللخمي عنى عناية بالغة بقراءة كتب جالينوس
وارسطوطاليس وغيرها من الفلاسفة وتمهر في علوم الادوية
المفردة حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد في عصره وألف فيها كتابا
جليلا لا نظير له جمع فيه ما تضمنه كتاب ديسقوريدوس وكتاب
جالينوس في الأدوية المفردة وكان له في الطب منزع لطيف ،
وذلك أنه لا يرى التداوى بالأدوية ما أمكن التداوى بالاغذية
أو ما كان قريبا منها ، فاذا دعت الضرورة الى الأدوية فلا يرى
التداوى بمركبها ، ما وصل الى التداوى بمفردها ، فان اضطر الى
المركب ، لم يكثر التركيب ، بل اقتصر على أقل ما يمكن منه .
ومنهم أبو مروان بن زهر الاشبيلي وأبو محمد عبد الله بن

محمد المعروف بابن الذهبي وأبو عبد الله محمد البجائي المعروف
بابن النباش معتن بصناعة الطب ذو معرفة جيدة بالعلم الطبيعي
ومشاركة في الاهلي وتحقق بعلم الأخلاق والسياسة وبصر بصناعة
المنطق . وممن غنى بطلب الفلسفة والهندسة والمنطق أبو الحسن
عبد الرحمن بن خلف بن عساكر كان صنع اليدين متصرفا في ضروب
من الاعمال اللطيفة والصناعات الدقيقة .

ولم تزل صناعة أحكام النجوم نافقة بالانديلس قديما وحديثا
فمن مشاهير المشتغلين بها أبو بكر يحيى بن أحمد المعروف بابن
الخياط وأبو مروان الاستجى أحد المتحققين بعلم الاحكام
والمشرفين على كتب الاوائل والاواخر وله في التسييرات ومطارح
الشعاعات وتعليل بعض أصول الصناعة رسالة فاضلة لم يتقدمه أحد
اليها . ومن المذكورين أبو الاصبع عثمان القرى من أهل قرطبة
وكان علمه الذي ينسب اليه ويغلب عليه التنجيم ومنهم عبد الرحمن
ابن وافد اللخمي من أهل طليطلة رحل الى قرطبة فلقى بها القاسم
خلف بن عباس الزهراوى وأخذ عنه علم الطب وكان مع تقدمه
في ذلك فقيها عالما متفننا وله في الفلاحة مجموع مفيد وكان
عارفا بوجوهها وهو الذي تولى غرس جنة المأمون بن ذى النون
الشهيرة بطليطلة توفى سنة ٥٦٧ وممن لم يشتهروا محمد بن عيسى
ابن ينق أبو عامر من أهل شاطبة لازم أبا العلاء بن زهر باشبائية
وأخذ عنه علمه وبرع في الطب والأدب وتوفى سنة ٥٤٧

ومن الاطباء بالاندلس جواد الطيب النصراني كان في أيام
الامير محمد بن عبد الرحمن الاوسط وله اللعوق المنسوب الى
جواد وله دواء الراهب والشرابات والسفوفات . وكان خالد بن يزيد
ابن رومان النصراني بقرطبة صانعاً بيده عالم بالادوية الشجارية
وابن ملوكة النصراني كان في أيام الامير عبيد الله وأول دولة
الامير عبد الرحمن الناصر وكان يصنع بيده ويفصد العروق وكان
على بابه ثلاثون كرسيّاً لثعود الناس وعمران بن أبي عمرو واسحق
الطبيب المسيحي كان مقيماً بقرطبة وكان صانعاً بيده مجرباً يحكى له
منافع عظيمة وآثار عجيبة وتحنك فاق به جميع أهل دهره ومنهم
سليمان أبو بكر بن تاج كان في دولة الناصرو ابن أم المؤمنين وأبو بكر
احمد بن جابر وأبو عبد الملك الثقفي كان أديباً عالماً بكتاب اقليدس
وبصناعة المساحة وهرون بن موسى الاشبولي وعبد الرحمن بن
اسحق بن الهيثم والرميلي كان بالمرية في أيام ابن معن المعروف
بابن صمادح ويلقب بالمعتصم بالله

ومنهم بن القوال يهودي من سكان سرقسطة كان متقدماً
في صناعة الطب متصرفاً في علم المنطق وسائر علوم الفلسفة
ومروان بن جناح كان يهودياً وله عناية بصناعة المنطق وتوسع
في علم لسان العرب واليهود ومعرفة جيدة بصناعة الطب ومنهم
اسحق بن قسطار وكان يهودياً أيضاً وكان بصيراً بأصول الطب
مشاركاً في علم المنطق مشرفاً على آراء الفلاسفة وله تقدم في اللغة

العبرانية وبراعة في فقه اليهود وهو حبر من أحبارهم ومنهم
حسداى بن اسحق وكان من أحبار اليهود متقدماً في علم شريعتهم
وهو أول من فتح لاهل الاندلس منهم باب علمهم من الفقه والتاريخ
وغير ذلك وكانوا قبل يضطرون في فقه دينهم وسنى تاريخهم
ومواقيت أعيادهم الى يهود بغداد فيستجلبون من عندهم
حساب عدة من السنين يتعرفون مداخل تاريخهم ومبادئ
سنينهم فلما اتصل حسداى بالحكم ونال عنده نهاية الحظوة توصل
به الى استجلاب ماشاء من تأليف اليهود بالمشرق فعلم حينئذ
يهود الاندلس ما كانوا يجهلون واستغنوا عما كانوا يتجشمون
الكلفة فيه .

ومنهم الفضل حسداى من ساكنى مدينة سر قسطة ومن
بيت شرف اليهود بالاندلس عنى بالعلوم على مراتبها وتناول
المعارف من طرقها فاحكم علم لسان العرب ونال حظاً جزيلاً من
صناعة الشعر والبلاغة وبرع في علم العدد والهندسة وعلم النجوم
وفهم صناعة الموسيقى ، وحاول عملها وأتقن علم المنطق وتمرن
بطرق البحث والنظر واشتغل أيضاً بالعلم الطبيعى ، وكان له نظر
في الطب ومنهم أبو جعفر بن أحمد بن حسداى كان آية في الطب
والمنطق ومنهم ابن سمحون أبو بكر حامد .

وكان أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى من مرسية
وأعيان أهل الاندلس وأكابرهم فاضلاً في معرفة الادوية المفردة

وكان أبو جعفر الغافقي والشريف محمد بن محمد الحسن بن وخلف
ابن عباس الزهراوى وابن بكلارش من أكابر علماء الاندلس
فى صناعة الطب وابن الصلت أمية بن عبد العزيز من بلدانية من
شرق الاندلس وهو من أكابر الفضلاء فى صناعة الطب وفى
غيرها من العلوم وكان أوحد فى العلم الرياضى متقنا لعلم الموسيقى
وعمله جيد اللدب بالعود .

ومن أعظم فلاسفة الاندلس أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ
المعروف بابن باجة وكان فى العلوم الحكيمية علامة وقته متميزاً
فى العربية والادب والطب متقنا لصناعة الموسيقى جيد اللدب
بالعود قالوا انه لم يكن بعد أبى نصر الفارابى مثله فى الفنون التى
تكلم عليها من تلك العلوم فانه اذا قرنت أقاويله فيها بأقاويل ابن
سينا والغزالى وهما اللذان فتح عليهم بعد أبى نصر بالمشرق فى فهم
تلك العلوم ودونا فيها بان لهذا الرجحان فى أقاويله وفى حسن فهمه
لاقاويل ارسطو والثلاثة أئمة دون ريب ومن حكمائهم الالهيين
أو المتصوفين الشيخ الاكبر محيى الدين بن عربى صاحب الفتوحات
دفين دمشق .

ومنهم أبو العلاء بن زهر كان غاية فى علوم الاوائل والطب
وأبو مروان بن أبى العلاء زهر وكان من كبار الاطباء . والحفيد
أبو بكر بن زهر كان متميزاً فى العلوم ولم يكن فى زمانه أعلم
منه بصناعة الطب ومنهم أبو الحفيد محمد بن أبى بكر بن زهر

وأبو جعفر بن هارون الترجالي من أعيان اشبيلية وكان محققا
للعلوم الحكمية متقنا لها معتنيا بكتب ارسطاطليس وغيره من
الحكماء المتقدمين فاضلا في صناعة الطب عالما بصناعة الكحل ،
وأبو الحجاج يوسف بن موراطير من شرقي الاندلس وموراطير
قرية من بلنسية كان فاضلا في صناعة الطب فالامور الشرعية
أديبا شاعرا ومنهم ابن أخته أبو عبد الله بن يزيد وأبو مروان
عبد الملك بن قبال وأبو اسحق ابراهيم الداني وكان أمين البيمارستان
وطيبه بالحضرة وكذلك ولداه وأبو يحيى بن قاسم الاشبيلي كان
صاحب خزانة الاشربة والمعاجين التي يأخذها الخليفة المنصور
من عنده .

وأبو الحكم بن غلندو الطيب وأبو جعفر احمد بن حسان
وأبو العلاء بن أبي جعفر احمد بن حسان وأبو محمد الشذوني وله
معرفة جيدة بعلم الهيئة والحكمة والطب مشهور بالعلم وأبو
الحسين بن اسدون شهر بالمصدوم الطيب وعبد العزيز بن مسامة
الباجي وأبو جعفر بن الغزال وأبو بكر بن القاضي أبي الحسن
الزهرى وابن الحلاء المرسي وأبو اسحق بن طملوس من جزيرة
شقر من أعمال بلنسية وأبو جعفر الذهبي وأبو العباس بن رومية
النباتي العشاب وأبو العباس الكنبنازي وابن الاصم وغيرهم من
الأطباء الذين كانوا يجمعون الى الطب أدبا وشعرا أوفقها وحديثا
وقرانا أو فلسفة ومنطقا أو نجوما أو كيمياء .

هذه جملة اجمالية في بعض رجال العلم غير الديني في الاندلس
ذاك القطر الذي اليه تنسب نحو نصف المدينة العربية الذي نقل
أهله المدينة القديمة الى أهل المدينة الحديثة فكانوا خير صلة وعائد
بين الرومان واليونان والفرس وبين الانكليز والاطليان والالمان
والفرنسيين وقد تم ما تم من ذلك بفضل عقول خلفاء العرب
وملوكتهم هناك فقد كان أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن أحد
ملوك الاندلس عالماً مفنناً مكرماً للعلماء والشعراء ولم يزل يبحث
عن العلماء وخاصة أهل علم النظر الى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع
لملك قبله من ملوك المغرب وكان ممن صحبه من العلماء والمتفنين
أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين وكان هذا متحققاً
بجميع أجزاء الفلسفة يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخدمة
من الاطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والاجناد الى
غير هؤلاء من الطوائف وكان يقول لو نفق عليهم علم الموسيقى
لا نفقته عندهم ولم يزل أبو بكر يجلب اليه العلماء من جميع
الاقطار وينبئه عليهم ويحضه على اكرامهم والتنويه بهم ، وهو
الذي نبهه الى أبي الوليد محمد بن رشد ، وأشار اليه بتلخيص
كتب الحكيم ارسطاطاليس لان أمير المؤمنين كان يشكو من
قلق عبارته أو عبارة المترجمين عنه وغموض أغراضه .

ومن المتأخرين في هذه العلوم أبو علي الصعلعل حسن بن
محمد رئيس الموقتين بالمسجد الأعظم من غرناطة (٧١٦) قال

لسان الدين : وكان فقيها اماما في علم الحساب والهيئة أخذ عنه
الجملة والنبيهاء قائما على الاطلاع والرخائم والآلات الشعاعية
ماهرأ في التعديل مداوم النظر ذا استنباطات ومستدركات
وتوالييف نسيج وحده ورجعة وقته ، ومثل أبي جعفر أحمد بن
حسن بن باضة السلمى الموقت بالمسجد الاعظم بقرنطة كان
نسيج وحده وقرير دهره معرفة بالهيئة وأحكاما لآلة الفلكية
ينحت منها بيده ذخائر يقف عندها النظر وتستدعى الحيرة
جمال خط واستواء صنعة وصحة وضع وبلغ في ذلك درجة عالية
ونال عناية بعيدة حتى فضل بما ينسب اليه من ذلك كثيراً من
الاعلام المتقدمين وازرت آلاته بالجمائريات والصفاريات وغيرها
من آلات المحكمين وتعالى الناس في أثمانها أخذ ذلك عن والده
الشيخ المتفهن شيخ الجماعة في هذا الفن ، ومثل أبي العباس أحمد
ابن مفرج النبائي المشهور (٦٣٨) وابن جابر الرياضي المشهور
والوزير ابن الحاج (٧١٤) كان من العارفين بالحيل الهندسية
بصيراً باتخاذ الآلة الحربية الجافية والعمل بها انتقل الى فاس
واتخذ الدولاب المنفسح القطر البعيد المدى ، والمحيط المتعدد
الاكواب الخفي الحركة ، ومنهم ابن خاتمة الاديب الطبيب من
أهل المئة الثامنة الذي كتب في الوباء^(١) كتابا عرف فيه الميكروب
والجراثيم وأثبت العدوى بما لا يقل عن عالم من علماء هذا

(١) المقتطف م ٢٨ ص ٣٠٤

العصر ، وفيه يقول ابن الخطيب انه حسنة من حسنات الاندلس ،
ومن رجالات الاندلس وأعلامها ابن طلمس الوزير ، كان كاتباً
مهندساً الى من ضارعههم في علمهم من الاطباء والفلاسفة
والحكماء والكياويين ممن لا يعدهم أناس من المؤرخين في صف
العلماء جهلاً وتعنتاً .

هذا في العلوم الطبية والطبيعية والفلسفية والفلكية
والرياضية وقد نبغ في الاندلسيين من العلماء في التاريخ والجغرافيا
والادب والرحلات أفراد ما برحت كتاباتهم مرجعاً الى اليوم لكل
عالم ومؤلف .

وقد أشبهوا علماء الغرب لهذا العهد في العناية بالعلوم المادية
وبرزوا فيها حتى نشأ لهم أئمة عظام على ما رأيت سابقاً وألقوا فيها
فاحسنوا احسانهم في صنائع لا يحسنها الا صنع الايدي دقاق النظر
وكثيراً ما كانوا يبسطون المسائل ويتوسعون في تحقيقها ومنهم من
يؤلف العشرة والعشرين مجلداً في علم واحد كما فعل أبو حيان مؤرخ
الاندلس فالف كتابه في ستين مجلداً وألف أحمد بن أبان صاحب
شرطة قرطبة كتاب السماء والعالم في مئة مجلد وموضوعه اللغة
جعله على الاجناس في غاية الايعاب بدأ بالفلك وختم بالذرة . وكثر
فيهم المكثرون من التأليف المجودون فيها ومنهم من كان له مئة
تأليف جيد . وقالوا ان تأليف ابن حزم بلغت نحو أربع مائة مجلد
وتأليف عالم الاندلس عبد الملك بن حبيب السلمي بلغت ألفاً .

ومن مشاهيرهم ابن جبير الـسكناني (٦١٤) الذي رحل الى
المشرق كما رحل كثير من علماء الاندلس قبله الى مصر والشام
والعراق والحجاز وغيرها في طلب العلم وأخذ الحكمة ثم عادوا الى
بلادهم وكتب رحلته المشهورة البديعة .

واشتهر في الجغرافيا أبو عبيد البكري المتوفى سنة ٤٨٧ هـ
صاحب كتاب معجم ما استعجم والمسالك والممالك ومحمد بن أبي بكر
الزهرى الغرناطي من أهل المئة السادسة والشريف الادريسي
صاحب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ويقال له كتاب رجار وذلك
لانه صنفه باسم رجار الثاني صاحب صقلية وجنوبي ايطاليا
سنة ٥٤٨ وغيرهم .

ومن مؤرخيهم الحميدي وابن حيان وابن خلدون وابن الفرضي
وابن بسام وابن بشكوال وابن الابار وابن سعيد وابن الخطيب
ومن أدبائهم المشهورين ابن جزى وابن هانى وابن سهل
الاسرائيلي ويحيى القرطبي وابن رزين وابن عمار وابن لبون
والباجي وابن الدباغ وابن الجند وابن القبطرنة وابن عبد البر
وابن السيد وابن عصام وابن عطية وابن خفاجة وابن وهبون
وابن اللبانة وابن الصائغ وابن سارة الشنتريني وعبادة وابن
وهبون وابن خروف وابن خاقان والمصحفي والاشجعي وابن
جهور وابن سلمة والمعماني وابن برد وابن أبي أمية ومنذر بن
سعيد والزبيدي وابن القوطية وابن العربي (أبو بكر) وابن الأعلم

والرمادي ومن أديباتهم حفصة بنت الحجاج الركوني وعائشة بنت قادم
وفاطمة الشيلاري وولادة بنت المستكفي بالله ومريم الفيصولي
(الفصولي) وصفية بنت عبد الله التبري والغسانية والبلشية
والوادي آشية ولبنى كاتبة الحكم بن عبد الرحمن ومزنة كاتبة الأمير
الناصر لدين الله وغالية المعامة وريحانة المقرئة وفاطمة المغامى ، وقر
البغدادية وحسانة التميمية وأم العلا بنت يوسف الحجازية وأمة
العزیز الشريفة الحسينية وأم الكرام بنت المعتصم بن صمدح
المرية ، والعروضية مولاة أبي المطرف عبد الرحمن بن غلبون
واعتماد جارية المعتمد المشهورة بالرميكية والعبادية جارية المعتمد
وبثينة بنت المعتمد بن عباد ، وحفصة بنت حمدون ، وزينب
المرية ، وغاية المنى ، وعائشة القرطبية ، وأسماء العامرية ، وأم
الهناء بنت القاضي عبد الحق ، ومهجة القرطبية ، وهند جارية
عبد الله بن مسلمة الشاطبي الشلبية ، وحمدة بنت زياد المكتب
وأختها زينب ، قال ابن سعيد انهما شاعرتان أديبتان من أهل
الجمال والمال والمعارف والصون الا أن حب الادب كان يحملهما على
مخالطة أهله مع صيانة مشهورة ونزاهة موثوق بها ، وسعدونة
وغيرهن

هذه حالة العلوم في تلك المملكة التي بادت وباد سلطاتها ،
وقد رأيت كيف كثر المهندسون في بلنسية وقرطبة
واشبيلية وغيرها من حواضر الاندلس وبأعمال هؤلاء الاعلام

زخر بحر العمران ، وقامت مدينة العرب على أمتن بنيان حتى
دهش بها ابن القرن العشرين العلامة روزيه السويسرى على
ما تقدم بك آنفاً .

تفنن عرب الاندلس

١٠

لم تقف همة الاندلسيين عند حد الابداع فى هندسة الدور
والمصانع وعمل النقش والزويق وتنجيد البناء والزخرف فيه وبناء
الجسور وتعبيد الطرق وانشاء السكور والسدود ، فان هذه
الاعمال فى العمران كانت نتائج لازمة للثروة العظيمة التى فاضت
عليهم من زراعاتهم وصناعاتهم ومتاجرهم ، فقد تفننوا أنواع
التفنن فى الزراعة ، ونقلوا الى الاندلس من الشام أنواعا من
الاشجار والازهار والغراس والبقول لم يكن لاسبانيا عهد بها
ومنها انتقلت الى أوروبا الغربية ، ومن جملة ما أدخلوه من أنواع
الشجر والنبات الفستق والموز والنخيل والارزوالقطن والتوت
وقصب السكر والزعفران والهلينون وزهر الكاميليا الحمراء
والبيضاء والورد اليابانى وغير ذلك ، وتفننوا فى هذا تفنن
الغريبين لهدنا بزروعهم وورودهم وثمارهم وبقولهم حتى كانت
الاندلس المعتدلة الاقليم ، الحسنة المناخ ، تعطى ثلاثة مواسم
فى السنة لحسن استثمارها ، فتدر على أهلها اخلاف الرزق

والغنى سواء في العناية عندهم الاعضاء أي الاراضى التى تسقى
بالمطار أو التى تسقى سيحاً أي بماء الانهار ، ذلك لانهم حفروا
آباراً ، وأسالوا المياه من القاصية ، وعمرروا خزانات وسدوداً .
وكان لهم بصر بالصنائع حملوا معهم من الشام أيضاً صناعة
صقل السيوف وهى الصناعة التى نسبت الى دمشق حتى اليوم فقليل
لها بالافرنجية Damasquinage أو Damasquinerie أو
Damasquinure أى تنزيل الذهب والفضة فى الفولا ذوقد اشتق
منه الفعل عندهم Damasquiner كما نقلوا صنعة الأقمشة من
الحرير والكتان مزينة بالرسوم من دمشق أيضاً فنسبت اليها
عندهم وقالوا فى فعلها Damasser أى عمل ثياباً على النمط الدمشقى .
واختصت قرطبة بدبغ الأديم أى الجلود واشبيلية بالحرير (كان
فيها سنة ١٥١٥ ستة عشر ألف نول يعمل فيها ١٣٠ ألفاً من
العملة فأصبح عددها سنة ١٦٧٣ أربعاً مائة نول فقط وذلك بعد
جلاء العرب والاسرائيليين) وكان بمالقة يعمل الزجاج كما « يصنع
الفخار المذهب العجيب وي جلب منها الى أقاصى البلاد » والى اليوم
ينسبون هذا الصنف الى مالقة فيقولون فى بلاد الشام المالقي
للصحاف والوانى المعروفة . واشتهرت المرية بعمل الوشى والديباج
والجوخ (كان فيها ٦٠٠٠ نول للجواخ) و « لكورة باجة
خاصية فى دبغة الأديم وصناعة الكتان » وكان فى المرية
« لنسج طرز الحرير ثمانمائة نول وللجلل النفيسة والديباج الفاخر

ألف نول وللاسقلاطون^(١) كذلك وللثياب الجرجانية كذلك
وللاصفهانية مثل ذلك وللعنابي والمعاجر^(٢) المدهشة والستور
المكلمة ويصنع بهامن صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج
مالا يوصف «

وكان الديباج والوشى يعمل أولا في قرطبة ثم غلبت عليها
المرية فلم يتفق في الاندلس من يجيد عمل الديباج اجادة أهل
المرية . وانفردت سرقسطة بصناعة السمور ولطف تديره وهي
الثياب الرقيقة المعروفة بالسرقسطية خصوصية لاهل هذا الصقع
« وفي جميع نواحيها يعمل الكتان والحرير الفائق » وكان في جيان
٦٠٠ نول للحرير ويعمل السجاد في رية والسلاح والحلى في قرطبة
ومرسية وطليطلة وسرقسطة . وأخذت شاطبة تصدر الورق
بكثرة منذ سنة ١٠٠٩ قال ياقوت وفي شاطبة يعمل الكاغد الجيد
ويحمل منها الى سائر بلاد الاندلس وبالجملة فلاهل هذه الديار
« خصائص كثيرة ومحاسن لا تحصى واتقان لجميع ما يصنعون »
قال مييجون : كانت في الاندلس عدة معامل مشهورة لصنع
الفسيفساء ويسمونه المفضص ونقلت صناعة الفسيفساء عن الرومان

(١) بلد بالروم تنسب اليه الثياب السقلاطونية وقد تسمى الثياب بنفسها
سقلاطونا قال في التاج هي كلمة رومية (٢) المعجر ثوب يمتحن به ويرتدى
والجمع المعاجر

وهكذا رسخت الصنائع في امصار الاندلس ، برسوخ الحضارة
وطول أمدها قال ابن خلدون : فانا نجد في الاندلس رسوم الصنائع
قائمة ، وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ماتدعو اليه عوائد
أمصارها ، كالمباني والطبخ ، وأصناف الغناء واللهو ، من الآلات
والاوتار والرقص ، وتنضيد الفرش في القصور ، وحسن الترتيب
والأوضاع في البناء وصوغ الآنية من المعادن والخزف ، وجمع
المواعين واقامة الولائم والاعراس ، وسائر الصنائع التي يدعو
اليها الترف وعوائده ، فنجدهم أقوم عليها وأبصر بها ، ونجد
صنائعها مستحكمة لديهم ، فهم على حصة موفورة من ذلك ، وحظ
متميز بين جميع الامصار . »

وذكر سيديليو ان العرب من حيث الاخلاق والعلم والصناعة
كانوا أرقى بكثير من الاسبان وهم أمتن أخلاقاً وطبائع ،
وفيهم الكرم والاخلاص ، والاحسان الذي لم يكن عند عدائهم
كما ان فيهم عزة النفس التي امتازوا بها في كل زمن ، وكان الافراط
المضر فيهاداعياً الى احداث البراز . وساعد على عظمة العرب
في اسبانيا انتشار الآداب والعلوم والفنون على عهدهم انتشاراً
كثيراً وكذلك الزراعة والصناعة وعم الذوق في اللذائذ العقلية
جميع طبقات المجتمع . والشعر يرقى النفوس . وغدت المنافسة
الشريفة على أتمها في الافكار . وكانوا يكتبون على جميع المصانع
اسم من أمر بينائها ، واسم بانيتها ، والأمة تمدح المحسن بها ،

والمحسن لبنائها ، وارتقت عندهم الهندسة والموسيقى والرقص الى درجة ذات بال ، ولا يزال الى اليوم في الغرب يدرس أسلوب بنائهم ، ويعجب بما نقشوه فيها من النقوش ، وكان لدولة الموحدين في الاندلس ذوق خاص في البناء انشاؤا الجوامع والمآذن والاماكن العامة والمستشفيات والرباطات ، في كل بلد من بلادهم وأقاموا الطرق والجسور والسدود وحفروا الآبار وأجروا الانهار اه .

ولقد كانوا يستخرجون من مناجمهم الزئبق والتوتيا والحديد والرصاص والفضة والذهب ويستقطنون السكر ويعملون اللبود « المشهورة في جميع الارض بالجودة والصنيع الحسن . ولهم من الالوان والاصباغ والحشائش التي يلون بها الحرير وأنواع الصوف والثياب ما ليس في بلد من بلدان الارض له نظير حسنا وكثرة . »
ويعملون حاصلاتهم ومصنوعاتهم الى أقطار المملكة العربية بل الى أقاصى البلاد الشرقية والغربية في البحار على سفن الاندلسيين التجارية وكان لهم منها أساطيل في كل فرضة من فرضهم تطلع على الدوام من موانى الاندلس لتحمل الى شواطئ أفريقيا وآسيا وأوربا ما يروج فيها من سلعهم ومعادنهم وثمارهم وحبوبهم .
قال كاباتون : كانت مدينة العرب في اسبانيا ظاهرة في الامور المادية وذلك بما استعملوه من الوسائط الزراعية لاختصاب الاراضى البائرة في الاندلس من الاساليب العلمية التي اتخذوها

لريها وهي أساليب ان لم تكن من اختراع العرب فهم الذين أكلوها
نواقصها وأحسنوا استخدامها كما أنهم أسسوا معامل للحريز
والجلود والبور وغزل الصوف والقطن والكتان والقصب
وأقاموا ما لا يحصى من المعاهد العامة وفيها ما يستدعي اعجاب
الامم بأسرها حتى بعد ثمانية قرون من انشائه اه .

وقال أحد علماء الفرنجة : كان في الاندلس على عهد الحضارة
العربية أربعون مليون نسمة من أرباب الصنائع والعمل (سكان
اسبانيا اليوم نحو ٢١ مليوناً وسكان البرتغال ٦ ملايين) وعلى
ذلك العهد قامت فيها المدن المهمة التي يعجب الناس الى اليوم
بجرائبها وعلى ذلك العهد كانت الزراعة ناجحة وبفضل هندسة
العرب كانت المياه تجري الى كل مكان في بسائطها فتحمل الخصب
والامراع . وقال آخر : ان عهد استيلاء العرب على اسبانيا كان
أسعد أيامها لنجاح زراعتها بما قام فيها من أعمال السقيا وبفضل
غراسهم وزروعهم وحسن استثمارهم لمعادن الارض ومناجمها
ولما اغتنت البلاد أكثر فيها سكان الدساكر والقرى كما أكثر سكان
المدن الكبرى .

ولا عجب — وحال البلاد من ارتقاء الصنائع والزراعة وتعددين
المناجم واتساع التجارة قد بلغ هذا الحد — ان كانت جباياتها من
حقوقها وغير واجبتها الى سنة ٣٤٠ هـ نحو عشرين ألف دينار

قال ابن حوقل : ولست أشك على ما يوجب النظر وتواطأ به الخبير
فيما جمعه الحكم بعد هلاك أبيه من خدمه والمصادر بين الذين
كانوا في جملته عن أسباب الاندلس ولوازمها وجباياتها وخراجها
واعشارها وصدقاتها وجواليها تمام أربعين ألف ألف دينار وبلغ
خراج الاندلس على عهد عبد الرحمن الثالث عدا ما كانت دولته
تستوفيه عيناً ٦٠٢٤٥٠٠٠٠ دينار . وحكى ابن خلدون عن الثقات
من مؤرخي الاندلس : ان عبد الرحمن الناصر خلف في بيوت
أمواله خمسة آلاف ألف ألف دينار مكررة ثلاث مرات
يكون جملتها بالقناطر خمسمائة الف قنطار وكان هذا الملك يقسم
الجباية اثلاثاً ثلث للجنود وثلث للبناء وثلث مدخر وكانت جباية
الاندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف الف واربعمائة
ألف وثمانين ألف دينار ومن الستوق^(١) والمستخلص سبعمائة ألف
 وخمسة وستين ألف دينار وأما أخماس الغنائم العظيمة فلا يحصيها
ديوان . وانتهت جباية قرطبة أيام ابن أبي عامر الى ثلاثة آلاف الف
دينار بالانصاف .

* * *

كان للاندلسيين حذق باستخراج العلوم واستنباطها من
ذلك ان عباس بن فرناس حكيم الاندلس صنع في بيته هيئة السماء
وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والبروق والعود وهو الذي

(١) الستوق الزيف البهرج الملبس بالفضة

استنبط بالاندلس صناعة الزجاج من الحجارة وأول من فك
الموسيقى وصنع الآلة المعروفه بالمثقال (?) ليعرف الاوقات على
غير مثال واحتال في تطيير جثمانه وكسا نفسه الريش ومد له جناحين
وطار في الجو مسافة بعيدة ثم سقط . فهو أول من حاول الطيران
من بني الانسان

وكان أهل قرطبة أول من عنى بتبليط المدن وكذلك انارة
الطرق في الليل عرفت لأول مرة في قرطبة أيضاً ولما ارتقت
العلوم على عهد بني الاحمر في غرناطة اكتشفوا بل اخترعوا بارود
المدافع وعرف منذ ذاك العهد ولا تزال مدافعهم التي دافعوا بها
عن غرناطة محفوظة الى اليوم في أحد متاحف اسبانيا .

وفي الاندلس عرف الطبع فكان أحد أبنائها هو السابق
في مضمار هذا الاختراع الذي لم تنتفع الانسانية بافيد منه .
فكانت لهم فيه طريقة لم ينته اليها خبرها بالتفصيل بل عرف
اجمالا ان عبد الرحمن بن بدر من وزراء الناصر من أهل المئة
الرابعة « كان ينفرد بالولايات فتكتب السجلات في داره ثم يبعثها
للطبع فتطبع وتخرج اليه فتبعث في العمال وينفذون على يديه »
فاذا كان هذا هو الطبع المعروف وما نظنه الا هو فيكون ابن
بدر العربي قد سبق غوتمبرغ الالماني مخترع الطباعة بنحو أربعة
قرون .

وذكروا أن ملوك غرناطة فرضوا اجوازل للمخترعين لينشطوهم

ويلقوا المنافسة بينهم وربما ميزوهم بامتيازات خاصة على نحو ما فعل
لويز الرابع عشر وكولبر في فرنسا . وعنى الاندلسيون بتأليف
رسائل يفهمها كل انسان تكون معاوناً على الانتفاع بالاعمال
العامة وهم انشأوا دساتير سهلة التناول يتدارسها الصناع والعملة
فتفيدهم فيما هم بسبيله .

واخترع الاندلسيون الخطوط المخصوصة بهم كما اخترعوا
الموشحات التي استحسناها أهل المشرق وصاروا ينزعون منزعتها
وكانت طبقاتهم في نظمهم ونثرهم لا تخفى على بصير ولم يكن يخلو
بلد من كاتب بليغ وشاعر مفلق بل « كان من مدنهم مثل شلب
قل ان ترى من أهلها من لا يقول شعراً ولا يعانى الأدب ولو
مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته
ما اقترحت عليه وأى معنى طلبته منه » وخص أهل وادي آش
بالادب وحب الشعر . وعلل ذلك أحد العارفين بقوله أن أهل
الاندلس أشعر الناس لما أكثر الله تعالى في بلادهم وجعله نصب أعينهم
من الأشجار والانهار والطيور والكؤوس لا ينازعهم أحد
في هذا الشأن .

وكانت للاندلسيين عناية بنقد الشعر لا يجوز عليهم ساقطه
ونبع كثيرون منهم في هذا المعنى والنوا فيه التأليف الممتعة .
وكانت لهم مدارس لتعليم القرآن والكتابة والحساب وتعلم العلوم
على اختلاف ضروبها في الجوامع من غير تكبير يعلمون الفلك

والجغرافيا واللغة والطب والنحو ومبادئ الطبيعة والكيمياء
والمواليد الثلاثة ذكروا أنه كان في قرطبة ثمانون مدرسة عامة وسكانها
مليون نسمة وان الموحدين انشأوا في الاندلس مدارس عامة
ومدارس عليا وأغدقوا احسانهم على العلماء يريدون أن يعيدوا
الى الاندلس بهاءها على عهد الامويين وان الحكم انشأ في قرطبة
سبعاً وعشرين مدرسة اتخذها المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء
والمساكين القرآن وأجرى عليهم المرتبات وعهد اليهم في الاجتهاد
والنصح ابتغاء وجه الله العظيم وفي ذلك يقول ابن شخيص :

وساحة المسجد الاعلى مكللة مكاتب لليتامى من نواحيها
لومكنت سور القرآن من كلم نادتك ياخير تاليها وواعيها
واحدث رضوان النصرى (٧٦٠) المدرسة بغرناطة ولم
تكن بها وكانوا كما قال ابن سعيد يقرأون في جميع العلوم
في المساجد باجرة فهم يقرأون لان يعلموا لان يأخذوا
جاريأ فالعالم منهم بارع لانه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله
على ذلك أن يترك الشغل الذى يستفيد منه وينفق من عنده
حتى يعلم .

وكثيراً ما كان ملوك الاندلس يقترحون على الناس حفظ
الكتاب الفلانى من كتب الادب والعلم ومن حفظه فله كذا دينار
فما هو الا أن يحفظه مئات طمعاً فى الجائزة وعم التلذذ بالادب
جميع طبقات المجتمع عندهم . وكثير من الشعراء كانوا ينتجعون

بشعرهم الملوك والامراء يمدحونهم فيصلونهم ويثوونهم زمناً
على نحو ما كانت الحال في القرون الوسطى في المتشاعرين المتغنين
بالشعر المتكفين به في بلاد الافرنج ويسمونهم بالافرنسية
التروبادور والتروفير^(١) Les Troubadours et les Trouvères

وكان تعليم البنات شائعاً عندهم وكثير منهم يحفظن بضعة
دواوين من دواوين العرب وينظمن ويترسلن كالاوربيات اليوم
واذا عرفت ان المدارس كانت مبدولة في المدن والقرى فلا
تستغرب بعد ذلك ان قال أحد مؤرخي الافرنج ان سكان
اسبانيا الاسلامية اقلية اقلية كانوا يقرأون ويكتبون على حين كان
اهل الطبقة العليا في أوروبا المسيحية أميين لا يقرأون ما عدا
أفراداً قلائل من الشمامسة جعلوا الكتابة من شأنهم .

وكان للاندلسيين غرام بتسبيل الكتب على المطالعة ولهم
خزائن كتب عامة وخاصة وكانت قرطبة أكثر بلاد الاندلس
كتباً وأهلها أشد الناس اعتناءً بخزائن الكتب صار ذلك عندهم
من آلات التعيين والرئاسة فلا يكاد يخلو دار من خزائنها كتب
قيمة . وقد انشأ الحكم الثاني عدة مكاتب للمطالعين فكان يرسل

(١) التروبادور شعراء كانوا يقولون الشعر باللغة الافرنسية القديمة في القرن
الحادى عشر الى القرن الخامس عشر والتروفير شعراء بلغة وال من القرن
الحادى عشر الى القرن الخامس عشر كانوا يتلفون الى الملوك والعظماء ينشدون
الاشعار ويضربون على الاوتار وربما أقاموا في قصورهم مدة ثم يتنقلون .

وكلاءه الى المشرق يستنسخون الاسفار فما هو الا أن يؤلف المؤلف تصنيفه حتى تستنسخ منه نسخة أو نسخ لتحمل الى خليفة الاندلس ولا يفوت بلاده شيء من حركة العقول وكانت دار كتبه تحتوي على أربعائة الف مجلد جاء فهرسها في أربعة وأربعين مجلداً ولطالما أجزل ملوك الاندلس الصلوات لبعض مؤلفي الشرق والاندلس حتى يذكروا في مقدمتها أنهم القوها برسم خزائنهم ومن المؤلفين من كانوا يرضون بذلك ومنهم من لا يرضون به يقصدون أن يكون لمن يستفيد منه .

وكان للعلماء والمؤرخين والشعراء والادباء في الاندلس مجامع علمية وأدبية أشبه بالمجامع أو الاكاديميات في هذا العصر وذلك لنشر العلم والمعارف ومفاوضة الحكمة بينهم فنتج من اجتماعهم فوائد مهمة للعلم والمدنية . وكان المظفر بن الافطس صاحب بطليوس من أعلم الملوك بالادب وله التصنيف المترجم بالتذكرة والمشتهر بالكتاب المظفرى في خمسين مجلداً في الفنون والعلوم واستأدب لبنيه أبا عبد الله بن يونس وكان يحضره وأبا الحزم بن عليم وأمثالهما للمذاكرة والمباحثة فيفيد ويستفيد وكان لأبي عامر أمير الاندلس في دولة هشام المؤيد مجلس معروف في الاسبوع يجتمع فيه أهل العلوم للكلام فيها بحضرته .

وقد انشأ الحكم جمعاً في قصر مروان وقلده غيره من أمراء الاندلس فأنشأوا مجامع لهم . وانشأ احمد بن سعيد النصرى جمعاً

في طليطلة فكان يجتمع عنده أربعون عالماً من طليطلة والبلاد
المجاورة ثلاثة أشهر في السنة أي في شهر تشرين الثاني وكانون الأول
وكانون الثاني يعقدون اجتماعاتهم في ردهة فرشت أحسن فرش
فيبدأون عملهم بتلاوة آيات من الكتاب العزيز ثم يتذاكرون
في تفسير ما قرأوا ويأخذ بهم الاستطراد إلى البحث في فنون
شتى من العلم والحكمة .

وكان أمير المسلمين علي بن تاشفين لا يقطع أمراً في جميع
مملكته دون مشاورة الفقهاء^(١) فكان إذا ولي أحداً من قضاته كان
فيما يعهد إليه أن لا يقطع أمراً ولا يبت حكومة في صغير من
الامور ولا كبير الا بحضور أربعة من الفقهاء فبلغ الفقهاء
في أيامه مبالغاً عظيماً يبلغوا مثله في الصدر الاول من فتح

(١) كان للقضاة في الاندلس مشاورون حتى لا يصدروا الا عن آراء
ناضجة واليك مثالا من تقليدهم : « هذا كتاب تنويه وترفيح ، وانهاض الي
مرقي ربيع ، أمر بكتبه الامير الناصر للدين أبو جعفر بن أبي جعفر أدام الله
تأييده ونصره ، للوزير الفقيه الاجل المشاور الحسيب الاكمل أبي بكر بن
أبي جرة ادام الله عزه انهضه به الى الشورى ليكون عند ما يقطع بامر ، أو
يحكم في نازلة ، يجرى الحكم بها على ما يصدر عن مشورته ومنهجه ، لما علمه
من فضله وذكائه وجدده في اكتساب العلم واقتنائه ، ولكون هذه المرتبة ليست
طريفة له بل تليدة ، متوارثة عن اسلافه الكريمة وآبائه ، فيلتحمها تحملاً المستقل
بأعبائها ، الاحن بأبنائها ، العالم بمقاصدها المتوخات المعتمدة وانحائها ، والله يزيد
تنويرها وترفيحاً ويوسع من حظوته وتمجيده مكاناً ربيعاً ، وكتب في التاسع
لذي حجة ٥٣٩ الثقة بالله عز وجل اه .

الاندلس . وأمير المسلمين هذا هو الذي اجتمع له ولايته من
أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من
الأعصار فانقطع اليهما من الجزيرة من أهل كل علم فحوله ، حتى
اشبهت حضرتها حضرة بنى العباس في صدر دولتهم وكانت
أيام بنى المظفر بمغرب الاندلس أعياداً ومواسم وكانوا ملجأ
لاهل الآداب خلدت فيهم ولهم قصائد أشادت ما أثرهم ، وابتقت
على غابر الدهر حميد ذكرهم .

كان أهل دانية اقرأ أهل الاندلس لان مجاهداً العامرى كان
يستجلب القراء ويفضل عليهم وينفق الاموال فكانوا يقصدونه
ويقيمون عنده فكثروا في بلاده قلنا واذا كان عرض للاندلس
في بعض أدوارها مافرق جامعها السياسية فاستفاد من ذلك أعداؤها
فقد كان لتفريقهم الى ممالك صغرى داعياً الى التنافس أحياناً
حتى صار لكل اقليم مزية ليست لغيره ، واختص كل ملك بشيء
فاتخذ أسباب النجاح فيه ، واستدعى أهل الاخصاء من رجاله .
ومن لطيف تدبيرهم في الانفاق على الجند دون تحميل الامة
أعباءه وهو تحت السلاح ما عمله ابن جمهور رئيس قرطبة من
جعل أهل الاسواق جنداً وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون
بأيديهم محصاة عليهم يأخذون ربحها فقط ورؤوس الاموال باقية
محفوظة يؤخذون بها ويراعون في الوقت بعد الوقت كيف حفظهم
لها وفرق السلاح عليهم وأمرهم بتفريقه في الدكاكين وفي البيوت

حتى اذا دهم أمر في ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه .
ومن أجمل أعمالهم في اقامة قسطاس العدل ان هشام بن
عبد الرحمن الداخل كان يبعث الى الكور قوماً عدولاً يسألون
الناس عن سير العمال ثم ينصرفون اليه بما عندهم . واعترض له
يوماً متظلم من أحد عماله فبدر الى الشاكي وقال له : احلف على
كل ما ظلمك فيه فان كان ضربك فأضربه أو هتك لك سترأ فاهتك
ستره أو أخذ لك مالا فنخذ من ماله مثله الا أن يكون أصاب منك
حداً من حدود الله فجعل الرجل لا يحلف على شيء الا أقيد منه .
ولقد بنى الخليفة عبد الله بن محمد الساباط بين القصر والجامع
بمدينة قرظبة وكان يقف فيه قبل صلاة الجمعة وبعدها فيرى
الناس ويشرف على اجتهادهم وحركاتهم ويسير بجماعاتهم ويسمع
قول المتظلم ولا يخفي عليه شيء من أمور الناس وكان يقعد أيضاً على
الابواب في أيام معلومة فترفع اليه فيه الظلامات وتصل اليه
الكتب على باب حديد قد صنع مشرحباً مستطيلاً لذلك فلا يتعذر
على ضعيف ايصال بطاقته بيده ولا انهاء مظلمة على لسانه وفتح باباً
في قصره سماه باب العدل وكان يقعد فيه للناس يوماً معلوماً
في الجمعة ليباشراً حوال الناس بنفسه ولا يجعل بينه وبين المظلوم
سترأ . فكانت سيرة عمالهم مع الرعايا ان يتحفظوا من كل أمر
يوجب الشكوى منهم وينقبضون عن التحامل على من دونهم .
وهكذا فانه لا يكاد يخطر ببالك شيء من أدوات الحضارة

ومقومات العمران وأساليب العلم والمعرفة الا قام به أو ببعضه
ملوك الاندلس وأهلها حتى التماثيل فانها كانت تجعل في قصور
العطاء والصور تزين بها غرفهم وردهااتهم لذلك أبقوا على أكثر
ما كان في البلاد قبل الفتح من التماثيل للاعتبار بها خصوصاً بعد
ان انغمسوا في الحضارة قال أبو عامر البرياني في الصنم الذي بشاطبة :

بقية من بقايا الروم معجبة أبدى البناء بها من علمهم حكماً
لم أدر ما أضمر وا فيه سوى أمم تتابعت بعد سموه لنا صنماً
كالمبرد الفرد ما أخطأ مشبهه حقاً لقد برد الايام والامماً
كأنه واعظ طال الوقوف به مما يحدث عن عاد وعن إرمأ
فانظر الى حجر صلد يكلمنا أشجى وأوعظ من قس لمن فهما

وقد أقاموا حدائق للحيوانات والنباتات وعنوا حتى بصراع
الثيران فزارعوا الاسبانيين وربما فاقوهم وأولعوا بالرقص ولهم
منه أنواع وكذلك آلات الطرب كالخيال^(١) والكرج والعود

(١) الخيال هو الذي يسمى خيال الظل أو الخيال الراقص أو خيال جعفر
الراقص وجعفر اسم مخترعه يسميه العامة كركوز « قره كوز » وبالفرنسية
Marionnette, polichinelle والكرج تماثيل خيل مسرحية من الخشب
معلقة باطراف اقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيول فيكررن ويفررن
ويشاققن وهي من آلات الرقص وتسمى بالفرنسية Carrousel, chevaux
de bois والروطة ضرب من الرباب معربة عن الاندلسية Rotta أو
Rote, وبالفرنسية rotte أو Rote, والمؤنس قرية يركب فيها مزار ولعلها
من اصل اسباني يقابلها بالفرنسية Musette أو Cornemuse والكثيرة
ضرب من السنطور تنقر أوتارها بالاصابع Cithare والقثارة Guitare

والروطة والرباب والقانون والمؤنس والكثيرة والقيثار والزلامي
والشفرة والنورة والبوق وكان في مدينة آبدة من أصناف
الملاهي والرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة ما تظهن
فيه احذق خلق الله تعالى باللعب بالسيوف والذكر واخراج القزى
والمربط والفتوحة

أما الموسيقى فقد كان زرياب أدخلها الاندلس فكان يجري
عندهم مجرى الموصلى في الغناء وله طريق أخذت عنه وأصوات
استفيدت منه وعلا عند الملوك وأحسنوا اليه حتى كادوا يفرطون
وشهر شهرة ضرب بها المثل . ولا عجب اذا قلنا ان تفرق الاندلس
اصقاعاً وممالك كان أشبه بتفريق المانيا وايطاليا قبل وحدتهما
الى أمارات صغيرة تتنافس في مضمار العلم والصنائع والعمران .

آلة ذات ستة أوتار ولها يد مقسومه الى انصاف الحان يركب عليه دساتين
والزلامي نوع من المزمار هو تصحيف الزنامى نسبة الى زنام مستنبط الناي
وكان زنام زماراً مشهوراً عند هرون الرشيد يضرب به المثل في حسن صناعته .
والشقرة والنورة مزماران الواحد غليظ الصوت والاخر رقيقه والعود معروف
وبالفرنسية Luth والرباب معروف وبالفرنسية Rebec والقانون مشهور
وبالفرنسية Harpe والبوق معروف . والذكر نوع من الرقص أو اللعب
يعرفه الزنج والحبش وبالفرنسية Kalenda والقزى نوع من لعب المشعوذين
والفتوحة جمع فتحة وهي خاتم كبير وهي لعبة الخاتم « من مقالة للعلامة الاب
انستاس ماري الكرملي : المقتبس م ١ ص ٤٣٥ »

مدينة مجريط

١١

سار بنا القطار من باريز الى جنوبي فرنسا ماراً بأراض عامرة
بزراعتها دالة على سلامة ذوق أهلها وتقنيتهم في ضروب الحياة
المادية والأدبية ولما اجتزنا جبال البيرنات « جبل الثنايا » دخلنا
ليلا محطة إرون الاسبانية قاصدين الى مجريط عاصمة اسبانيا
الحديثة كثرت لواعج الاشواق الى الصقع الاندلسي واشتدت
تباريح الذكرى

وأكثر ما يكون الشوق يوماً اذا دنت الخيام من الخيام
تمثلت للعين تلك الأمة العربية الغربية ، وما أثلته من الأعجاد
في هذه البلاد ، وظهرت فيه من مظاهر الحياة الراقية ، تذكرت
جيلا عظيماً ، لم يبق سوى التحدث بطيب أخباره . والتطلع الى جميل
آثاره ، ذكرت عشرات الألف من العطاء ضمت الاندلس
أعظمتهم ، وكان كل واحد أمة برأسه ومنهم من لم ينبغ أمثال
لهم في أمة في القرون المتواصلة ووددت لو أمكن العمل بحكمة
المعري حين قال :

خفف الوطاء ما ظن أديم الا رض الا من هذه الأجساد
وحرام بنا وان قدم العهر دهوان الآباء والأجداد

مدينة مجريط أو مدريد هي عاصمة اسبانيا منذ سنة ١٥٦٠
وسكانها اليوم يقربون من سبعمائة ألف وهي العاصمة التي اختارها
فيليب الثاني لتوسطها من البلاد وكانت على عهد العرب حصناً أو
بليدة ولم ترزقها الطبيعة نهراً كبيراً ولا ضاحية بدیعة مشجرة
مثمرة بل كان قديماً في أرباضها بعض الغابات فخطمت ولم يبق
منها الا القليل . على أن فيها اليوم ما في جميع عواصم الغرب
من المرافق والمصانع . زرت بعضها وهي لا تختلف عن مصانع
الأمم اللاتينية الا قليلا بل هي أقل عظمة من مصانع ايطاليا
وفرنسا وليس في مجريط أثر يعتد به من آثار العرب ، وأما
آثار الاسبانيين الحديثة فليست مما يعجب به كثيراً لأنها حديثة
عهد على الأغلب وتكاد تكون الصبغة الدينية متجلية في كل
مصنع من مصانعهم .

وأكثر أحياء المدينة ضيقة وبيوتها مزدحمة كسائر المدن
المنحطة في أوربا الا ان بعض الأحياء والدور المستحدثة هي على
الطراز الغربي الجديد ولها حدائق وساحات على جانب من السعة
مستوفاة شروط الصحة . وقد أنشئت في زمن الحرب العامة
في مجريط وغيرها من مدن اسبانيا بيوت أقامها أغنياء الحرب
أي الذين اتجروا فيها وربحوا وربحت بهم اسبانيا لحياها وقد
أحسنن لنفسها بالتزامها خطة المسالمة ومن هذه البيوت ما يقتضى
ألوفاً من الليرات . فلما اشتدت الازمة على أوربا عامة لحق

اسبانيا من أثرها شيء بالطبع فوقف العمل في بعض تلك البنايات
وكذلك كثير من المشاريع والمعامل التي أحدثوها مغتتمين
فرصة تقاتل جيرانهم

في مجريط تسعون كنيسة من الكنائس التي لاشأن لها في نظر
التاريخ وعلم العاديات . وليس لها مقام رفيع في باب البناء الحسن .
والمصانع التي من هذا القبيل ليست بالكثيرة العدد وقد قام
القصر الملكي اليوم محل القصر العربي وكان هنرى الرابع جعل
هذا القصر محلا للصيد . وفي متحفها الوطنى بعض آثار العرب
التي أفلتت من أيدي الذين زهدوا فيها بصنع المتعصبين من رجال
الدين وخربوها وأتلفوها . أما تاريخ هذا الحصن العربي أى
مجريط فليس بعظيم وخلاصته أنه أخذ من العرب ثم استعادوه
الى أن استولى الاسبان على طليطلة سنة ١٠٨٦ م فأصبحت
مجريط يومئذ اسبانية وقد زادت مكانة مجريط فكبرت رقعتها
في الجزء الثانى من القرن التاسع عشر وذلك لاتصالها بالخطوط
الحديدية مع الولايات ومع فرنسا والبرتقال وقد أنشئ فيها
في العهد الأخير ترامواى كهربائى Métropolitain تحت الأرض
على مثال ترامواى باريز ولندرا وبرلين ونيويورك .

دير الاسكوريال

١٢

أهم ما في ضاحية مجريط دير الاسكوريال على أحد وخمسين
كيلو متراً منها بناه فيليب الثاني ونجزت عمارته سنة ١٥٨٤ وعمر فيه
حفيدة فيليب الرابع البانتيون مدفن العظماء من الآل الملوكي
وقيل انه أنفق على الدير خمسة عشر مليوناً ونصف مليون من
البيستاس أي الفرنك الاسباني .

والاسكوريال كما قال عنه واصفوه من الافرنج مثال مما عمله
الارادة ومما لا عمله فقد قيل ان الارادة قادرة في بعض الاحوال
وعاجزة عن إيجاد عمل واحد يدل على نبوغ وعبقرية وهذه
الشعلة الالهية قد نقصت في عمل باني الدير فمن نشأ في عهد
لم يشتهر بقوة الایجاد ولا بسلامة الذوق لجاء بناؤه جافاً رغم
ما تعاوره من أيدي المهندسين لم ينم عن لطف ولا حوى أسباب
الجمال . وغلب على البناء تصنع الملك فيليب في مظاهر أهته
وعظمته ولطالما ضيق صدور أسرته وحاشيته منه في هذا الشأن
فلم يكن لهم هم الا أن يدهنوه وكان من طبعه أن يتدخل فيما
لا يعلم حتى أفسد على المهندسين عملهم أو كاد وجاء العمل الذي

أبقاه للاعقاب حتى يفتخروا به وليس فيه كبير أمر من جمال
الهندام والنظام أشبه بسجن مظلم وديماس منحوت .
وأهم ما يلفت النظر في هذا الدير دار كتبه وفيها خمسة وأربعون
ألفاً من المجلدات حوت كثيراً من المخطوطات والنقوش والرسوم
ومنها الكتاب المقدس الذي كان يقرأ فيه بعض ملوك اسبانيا
في القرون الوسطى وبعضها كتب باللاتينية ومنها ما كتب
بالاسبانية أو اليونانية ومنها المزين بأجمل الرسوم ومنها المذهب
المكتوب على رق ويهمننا من هذه المكتبة مجموعة الكتب
العربية وهي الفا مجلد كانت السفن الاسبانية غنمتها من مركب
لاحد ملوك مراکش المتأخرين . وكان في هذا الدير قبل القرن
السابع عشر نحو ثلاثة آلاف مخطوط عربي فالتهمتها النار في الحريق
الذي نشب في الدير مع ما التهمت من الكتب الاخرى .
فليست الكتب العربية في خزانة الاسكوريال اسبانية
المصدر كلها كما أكد لنا أحد علماء الاسبان وصاحب البيت
أدرى بالذي فيه أخبرني أن الاسبان غنموا هذه الكتب من
سفينة كانت لاحد سلاطين الغرب الاقصى فوقعت في أيدي
الاسبان وقال آخر أن أصل هذه المجموعة كانت لاحد سفراء
اسبانيا لدى الباب العالي ولما غادر الاستانة أهداها لملكه فوضعها
هذا في الدير الذي كان ملكاً له ولآله من بعده والرواية الاولى
أصح .

وقد وصف هذه الكتب باللاتينية أحد رهبان الموارنة من سنة ١٧٤٩ ١٧٥٣ وفيها ١٩٥٥ مخطوطاً رأيت نموذجات منها وقرأت وصف الآخر فيما كتبه أحد علماء المشرقيات من الفرنسيين ولا سيما القسم الذي يهمني منها

عراني في هذا الدير ما عرا كثيرين قبلي من السويداء ثم السكون والراحة والبرودة التي تدعو الى العزلة والتفكير والانكماش والدرس وانك لتشعر وأنت تسير تحت قباب الاسكوريال العارية من التفنن والزينة بهواء بارد من حياة الاديار كما تشعر في مدارس اكسفورد ويبيعها والنازل هنا بطبيعته يرى دافعاً من نفسه يدفعه إلى أن يشغل نفسه بشيء وما من ملجأ أوفق لنسيان العالم يحمل ساكنه على البحث عن الحقائق وعلى الصبر في كشف المسائل المتعدرة المهمة المجهولة مثل هذه المعاهد.

قرطبة والزهاء

١٣

بأربعة فاقت الامصار قرطبة منهن قنطرة الوادي وجامعها هاتان ثنتان والزهاء ثالثة والعلم أعظم شيء وهو رابعها لم يكتب لي أن أزور مدينة طليطلة لاشهد فيها قصور العرب

القدمية ومساجدها القائمة الى اليوم وعاديتها الماثورة وكانت من
عظام مدائن الاندلس وهي من قرطبة على عشرين يوماً فاكثفت
بزيارة ثلاث مدن من أمهات المدن الاندلسية قرطبة واشبيلية
وغرناطة وهي العواصم الثلاث التي تأصل فيها حكم العرب
وطالت أيامه .

وقرطبة كانت في عزها أعظم مدائن الاندلس فأصبحت الآن
وليس فيها من السكان سوى ثمانية وخمسين ألف ساكن وقيل ان
مساجدها بلغت ألفاً وستمئة مسجد وحماماتها ستمائة وذكر
آخرون انه كان فيها مائتا ألف دار وثمانون ألف قصر دورها
ثلاثون ألف ذراع وكان بخارجها ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة
منبر وفقية مقلص (١) تكون الفتيا في الاحكام والشرائع له
يأتون كل جمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ويطلبونه بأحوال
بلدهم .

قال المراكشي : بلغت قرطبة من القوة وكثرة العمارة وازدهام
الناس مبلغاً لم تبلغه بلدة . حكى ابن فياض في تاريخه في أخبار
قرطبة قال كان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة
كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي هذا ما في ناحية من نواحيها

(١) القلس هو الذي يلبس القالس أو القلنسة وكان يحق للمقلص وحده
في الاندلس ان يفتي وكان عليه ان يستظهر الموطأ والمدونة أو عشرة آلاف
حديث وللمقلصين الحق ان يلبسوا القالس فقط وتكتب بالصاد (قاله دوزي
في ملحقه على المعجمات العربية)

فكيف بجميع جهاتها وكان الماشى يستضيء بسرج قرطبة ثلاثة فراسخ لا ينقطع عنه الضوء .

وفي تواريخ الافرنج ان قرطبة كانت منقطعة القرين بين مدن الغرب أى أوربا وليس ما يشبهها بعمرائها وسكانها فكان فيها خمسمائة ألف ساكن و٢٨٧ ربيضاً وهي مكتظة بالسكان وقد قامت المتنزعات البهجة المغروسة بأنواع الاشجار على طول الوادى الكبير والقصور والمصايف مغطاة بالخضرة وكان في هذا الوادى الكبير أربعة عشر ألف قرية .

فقرطبة كانت أعظم مدينة بالاندلس وليس بجميع المغرب « لها شبه كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق » ووصفها المقدسى فقال : « وصف ماشئت من طيبها ورحبها فأنهاجنة الاندلس على ما حكى لى وهي مصر الاندلس وقد دلت الدلائل واتفقت الآراء على أنه مصر جليل رفيق طيب وان ثم عدلا ونظراً وسياسة طيبة ونعمة ظاهرة وديناً وهي في جهاد ونفير أبدأمع علم كثير وسلطان خطير وخصائص وتجارات وفوائد » وذكروا ان لاهل قرطبة رئاسة ووقار لا تزال سمة العلم والملك متوارثة فيهم .

ليس في قرطبة اليوم من آثار العرب سوى قطعة من مسجدتها الأ عظم بناه عبد الرحمن الداخل وكان معبداً للويزغوت على اسم القديس منصور وقد ملكه المسيحيون وأخذ المسلمون نصفه

سنة ٧٨٥ م ولما شرع بالبناء ابتاع عبد الرحمن النصف الآخر
منهم كما فعل الوليد الاموى فى دمشق يوم بنى جامعها واستصفي
النصف الآخر من اربابه المسيحيين وعوضهم عنه كنائس اخرى.
وزاد الناصر عبد الرحمن بن محمد فى المسجد الجامع بقربطبة
زيادته المشهورة وفيها القبو الكبير الذى يصطف المؤذنون امامه
يوم الجمعة للاذان وهو من اعجب البنيان . وحبس المستنصر بالله
على الجامع بقربطبة لما كملت زيادته ربيع جميع ماجرت اليه الوراثه عن
أبيه أمير المؤمنين فى جميع كور الاندلس وأقاليمها على ثغور الاندلس
كافة تفرق غلات هذه الضياع عاما بعد عام على ضعفائهم الا أن
تكون بقربطبة مجاعة فتفرق فيهم .

ومما قيل فى آثار مدينة قرطبة وعظمتها حين تكامل أمرها
فى مدة بنى أمية ان عدة الدور التى بداخلها للرعية دون الوزراء
وأكابر أهل الخدمة مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار
ومساجدها ثلاثة آلاف وعدة الدور التى بقصرها الزهراء
أربعمائة دار وذلك لسكنى السلطان وحاشيته وأهل بيته .

وقالوا ان المسلمين لما فتحوا قرطبة وجدوا بها آثار قنطرة
فوق نهرها على حنايا وثاق الأركان من تأسيس الأمم الدائرة قد
هدمها مرور النهر على ممر الازمان فتقدم الى فضيلة النظر فيها عمر
ابن عبد العزيز رضى الله عنه عند ما اتصل به خبرها فامر السماح
بابتنائها فصنعت على أتم وأعظم ما بنى عليه جسر من حجارة سور

المدينة . وربما كان هذا أول عمل في العمران قام على أيدي
عرب الاندلس في القرن الأول للهجرة .
قال بعضهم لم يكن للعرب هندسة خاصة لمادخلوا قرطبة وكانوا
يعتمدون على هندسة أهل البلاد التي تغلبوا عليها فنسجوا
في بناء المسجد على مثال مساجد مصر ومسجد القيروان وكان هذا
من أعظم مساجد الاسلام وقيل أنه بنى على شكل مسجد دمشق
وكان فيه ١٤١٨ سارية تشبه غابة ملتفة والباقي منها الآن ٨٦٠
وهي أدق من سوارى الجامع الأموى اليوم وقال آخران الباني
واخلافه جلبوا هذه السوارى من ابنية قديمة وبيع مسيحية
في القاصية كجنوبي فرنسا وأفريقية أى قرطاجنة والاستانة
وتبين ان أكثرها من مقالع اندلسية ومحراب هذا المسجد الجامع
لا يزال محفوظاً وهو دهشة الى اليوم والى ما بعد اليوم وعلو
قبته تسعة أمتار حفر في قطعة واحدة من المرمر وعمل بالفسيفساء
وزبرت عليه آيات كريمة . وله اثنان وعشرون باباً معمولاً بالنحاس
بقي الآن منها ١٢ باباً وعلى بعضها صورة نقوشها الاصلية وقد قام
البرج الذى هناك مقام المنارة التي أنشأها عبد الرحمن الناصر .
يقول جوسيه لو أقيمت البيعة التي أقاموها وسط الجامع على عهد
شارل كان في مكان آخر لصار لها شأن وهي هنا من أبشع آثار
الهندسة اذ أحدث بانوها بها ضرراً على بناء وحيد من نوعه
في العالم .

وكان في جامع قرطبة سبعة آلاف مصباح تنعكس أنوارها
على النقوش المذهبة والزهررد والياقوت والمفصص وغيرها فتزيد
في جماله وعلى ما أصيب به هذا المسجد من الأضرار بقي الى اليوم
من أغرب ابنية الأرض .

قال غوتيه : لا سبيل الى وصف التأثير الذي يشعر به المرء
عند دخوله هذا المسجد الاسلامي القديم فيترأى لك انك تسير
في غابة مستقوفة لا في بناء مصنوع وحيث اتجهت يضيع بصرك
في صفوف من السواري تلتقي وتمتد على مرمى البصر مثل غراس
من المرمر ظهرت من تلقاء نفسها على أديم الأرض اه .

نعم ان البيعة التي أقيمت وسط جامع قرطبة والبيع الصغرى
التي جعلت في أكثر زواياها قد شوهت من محاسنه وابدلته عن
أصله وفي نية ديوان الآثار فيما بلغني أن يرجع القديم كما كان
وينقل الآثار المسيحية من جامع قرطبة ليبقى بدون زيادة ولا
نقصان طرازاً في البناء منقطع القرين في الأرضين الا ان البيعة
الوسطى بيعة شارل كان يصعب نقل انقاضها لما فيها من الزخرف
ولما صرف عليها من المال .

هذا ما بقي من آثار الأجداد في قرطبة وقد زرتها وأرباضها
فرايتها وهي على منبسط من الأرض تشبه ضاحيتها ضواحي دمشق
وهندسة أكثر بيوتها الجديدة على الطراز العربي البديع ولأهلها
الى هذا العهد حرمة له وغرام به وحرص عليه يعدونه من جملة

مقدساتهم . وعلى أربعة أميال من قرطبة بنيت مدينة الزهراء
سنة ٣٢٥ هـ بناها الناصر لدين الله الأموي في ست عشرة سنة
وطولها ألف وستمائة ذراع وعرضها ألف وسبعون ذراعاً وجعل
في سورها ثلثمائة برج وخص ثلثها قصوراً للخلافة وثلثها للخدم
وثلثها بساتين وكان يدخل فيها كل يوم من الحجر المنحوت
سنة آلاف صخرة سوى الآجر وغيره وحمل اليها الرخام من
أقطار الغرب ودخل فيها أربعة آلاف وثلثمائة سارية وأهدى
ملك الفرنج لبانيها أربعين سارية رخام واما الوردى والأخضر فمن
أفريقية والحوض المذهب جلب من قسطنطينية والحوض الصغير
عليه صورة أسد وصورة غزال وصورة عقاب وصورة ثعبان
وغير ذلك والكل بالذهب المرصع بالجوهر وكان ينفق عليها ثلث
دخل الاندلس وكان دخلها يومئذ خمسة آلاف ألف وأربعمائة
ألف وثمانين ألف درهم .

وقال أحد المؤرخين ان مباني قصر الزهراء اشتملت على
أربعة آلاف سارية جلبت من رومية وقسطنطينية وقرطاجنة
وتونس وأفريقية فيها خمسة عشر ألف باب ملبس بالحديد والنحاس
المموه وكان عدد الفتيان فيها ثلاثة عشر ألف فتى وسبعمائة
وخمسين فتى وعدد النساء بقصر الزهراء ستة آلاف وثلثمائة امرأة
وأربع عشرة امرأة وكان على الحجر الذي جلب من مقالع الاندلس
أو حمل من القاصية نقوش وتماثيل وصور على صور الانسان ولما

جلبه أحمد الفيلسوف وقيل غيره أمر الناصر بنصبه في وسط المجلس
الشرقي المعروف بالمؤنس ونصب عليه اثني عشر تمثالاً . وقال
بعضهم عمل في الزهراء عشرة آلاف عامل خمساً وعشرين سنة وفي
الشرق من الوادي الكبير مدينة الزاهرة التي بناها المنصور
ابن أبي عامر التي يقول فيها ابن عربي لما دخلها ووجدها مهتمة:
ديار بأكناف الملاعب تلعب وما انبها من ساكن فهي بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب فتصمت أحياناً وحيناً ترجع
نخاطبت منها طائراً متفرداً له شجن في القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكي فقال على دهر مضى ليس يرجع
وقد حرقت الزهراء وهدمت في حدود سنة ٤٠٠ هـ وبقيت
رسومها وخربت قرطبة وما فيها من القصور والمرافق في حرب
البربر وسقطت قرطبة في أيدي العدو سنة ٦٣٣ هـ بعد ان
كانت مدة خمسة قرون وخمس قرن في أيدي العرب ولم يعد
حكمهم اليها بعد ذلك ولما خلت قرطبة من سلطان يرجع الى أمره
صار كل من قويت يده عمر مدينة فخرت قرطبة وعمرت اشبيلية.

على شاطئ الوادي الكبير في أجمل بقاع الاندلس وأعدلها
هواء وأزكاها تربة قامت هذه العاصمة التي كانت من أعظم مدن
الاندلس بعد سقوط قرطبة في أيدي الاسبان وكانت مدينة الحظ
والسرور على اختلاف الدهور والعصور وليس اليوم في اشبيلية
بقايا كثيرة من آثار العرب الا الجير الدا أو منارة الجامع الاعظم
وهي أعجوبة اشبيلية ترى من مكان بعيد بناها مهندس عربي من
سنة ١١٨٤—١١٩٦ لأبي يوسف بن يوسف من دولة الموحدين
وهي من الآجر يدق حجمها كلما ارتفعت في الهواء وقاعدتها
عبارة عن مربع ذي ١٣ متراً و٥٥ سنتمترًا ويزيد سمك الجدران
على مترين وقد تشوهت بما زاد عليها الاسبان بعد خروجها من
أيدي العرب وهي الآن قبة جرس البيعة الكبرى .

قال في ذيل الباب : فدخل (يعني أمير المؤمنين يعقوب بن
يوسف بن عبد المؤمن) اشبيلية في غرة صفر سنة ٥٩٣ فآخذ
في اتمام بناء الجامع وتشيد مناره وعمل التفافيح من أملح
ما يكون من عظمة لا أعرف له قدرًا الا أن الوسط منها لم يدخل
على باب المؤذن حتى قطع الرخامة من أسفلها وزنة العمود الذي

ركب عليه أربعون ربعاً من الحديد وكان الذي صنعها ورفعها
في أعلى المنار المعلم أبو الليث الصقلي وموتت تلك التفافيح بمائة
ألف دينار ذهباً هـ .

ومن أجمل ما في كنيسة اشبيلية اليوم والجامع أمس ناووس
من الصلب فيه بقايا خريستوف كولبس الملاح الجنوى الذي
اكتشف أميركا يحمله من أربعة أطرافه ملك قشتالة وملك
ارغون وملك ليون وملك نافار وهو من صنع ميليدا سنة ١٨٩٢
كان في كنيسة هافان ثم نقل الى اشبيلية سنة ١٨٩٨ بعد ان
تحررت كوبا من اسبانيا .

تقرب اشبيلية من البحر ولا ترتفع عن سطحه أكثر من
ثمانية أمتار وقد قال الفرنجة فيها : ليست الجير الدا ولا سائر مصانع
اشبيلية ولا كنوز آثارها وجميل نقوشها على الحيطان هي التي
اشتهرت بها اشبيلية البديعة ورددت المثل الذي سار فيها «من لم ير
اشبيلية لم ير غريبة» بل ان ما اشتهرت به في جميع اسبانيا مظاهر
سرور الحياة فيها من سراقص وأفراح ومواسم وحركة البهجة
الدائمة التي تنبعث من سكانها على الدوام .

جرت مناظرة بين يدى منصور بن عبد المؤمن بين العالم
أبي الوليد بن رشد والرئيس أبي بكر بن زهر فقال ابن رشد لابن
زهر في كلامه : ما أدري ما تقول غير انه اذا مات عالم باشبيلية
فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها واذا مات مطرب

بقرطبة فإريد بيع تركته حملت إلى اشبيلية . وبهذا عرفت أن اشبيلية بلدة طرب وسرور في معظم أدوارها ولطبيعة الأقليم دخل كبير في هذا الشأن .

في اشبيلية قصور كما في قرطبة مصايف زرتها ووزرت حدائقها وطوفت في اعطافها وهي ملك لا ناس من أغنياء البلاد تتناقل من سيد فيهم إلى سيد ومنها ما جعل كما هو بيت بيلاتوس على الداخل إليه جعل يتقاضاه الحارس ليصرف على الفقراء كما جعلت الحكومة على كل داخل إلى معهد من معاهد العرب وغيرهم جعلاً من النقود لتصرف منه على الترميم فليس في البلاد ما يعنى الناظر إليه والزائر له من دفع النقود من متاحف وآثار إلا إذا كان بعض المغاور والحصون والسدود الخربة التي قامت في كل ناحية من أنحاء البلاد التي ظل فيها حكم العرب نافذاً دهنراً طويلاً .

كانت اشبيلية تعد من العواصم بكثرة سكانها ولما سقطت في أيدي الأعداء هاجر من مسلميها فقط زهاء ثلثمائة ألف مسلم إلى قرطبة وجيان وبلنسية وغرناطة حيث كانت راية بني نصر تحفق . وناهيك ببلدة يهاجر من سكانها هذا العدد وسكانها اليوم ١٤٨ ألفاً وتعد من المدن المتجددة وليس لها مسحة من القديم إلا ما كان من بعد عهد العرب وقد سقطت من بعد جلائهم عنها إلى الحضيض .

مدينة غرناطة

١٥

بلد تحف به الرياض كأنه وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم غادة ومن الجسور المحكمات سواره
هذا مقاله ابن الخطيب في هذه العاصمة آخر ما حكمته
العرب من أرض الاندلس من عواصمها وحواضرها جمعت فيها
بقاياهم وجالياتهم فظلوا فيها نحو قرنين ونصف قرن وعمرها
فادهشوا العالم بعمرانها . جاءها جميع المسلمين الذين لم يحبوا ان
يبقوا في البلاد التي وقعت في قبضة العدو يحتمون بملوكها من بني
نصر جاؤها ألوفاً ألوفاً من قرطبة واشبيلية وبلنسية يحملون
اليها ما كان مبعثراً من الصنائع والثروة في تلك الأرجاء .
قالوا ان غرناطة قاعدة بلاد الاندلس وعروس مدنها وخارجها
لا نظير له في بلاد الدنيا وهو مسيرة أربعين ميلاً يخترقه نهر
شنيل المشهور وسواه من الانهر الكثيرة والبساتين والجنات
والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة . وحكى
ابن سعيد ان غرناطة تسمى دمشق الاندلس لسكنى أهل دمشق بها
عند دخولهم الاندلس وقد شبهوها بها لما رأوها كثيرة المياه
والاشجار وقد أطل عليها جبل الثلج Sierra Nevada — كما

أطل جبل الثلج أو جبل الشيخ أو جبل حرمون على دمشق —
وفي ذلك يقول ابن جبير :

يادمشق الغرب هاتيك لقد زدت عليها
تحتك الأنهار تجري وهي تنصب اليها

قال ابن سعيد أشار ابن جبير الى أن غرناطة في مكان مشرف
وغوطتها تحتها تجري فيها الأنهار ودمشق في وهدة تنصب اليها
الانهار وقد قال الله تعالى في وصف الجنة تجري من تحتها الأنهار .
أما غوطة غرناطة اليوم فليست كغوطة دمشق بأشجارها الملتفة
ولا كما كانت كذلك على عهد العرب بل هي جرداء مرداء ولذلك
كان منظرها أشبه بمنظر سهل البقاع اذا أطلت عليه من سفوح
لبنان الغربي .

وغرناطة في كورة البيرة من أشرف كور هذا الاقليم نزلها
جند دمشق .

قال الرازي : وخص البيرة أي سوادها وريفها لا يشبه بشيء
من بقاع الارض طيباً ولا شرفاً الا بالغوطة غوطة دمشق .

وقال ابن الخطيب : وخصها أي خص غرناطة الافيج المشبه
بالغوطة الدمشقية حديث الركاب وسمر الليالي قد دحاه الله
في بسيط سهل تحترقه المذانب وتتخلله الانهار والجداول وتزاحم
فيه الغرف والجنات في ذرع أربعين ميلا ونحوها تنبو العين
فيها عن وجهه ولا تتخطى المحاسن منها مقدار رفعة الهضاب

والجبال المتظامية منه بشكل ثلثي دائرة قد علت منذ المدينة فيما
يلي المركز من جهة القبلة مستندة الى أطواد سامية وهضاب عالية
ومناظر مشرقة فهي قيد البصر ومنتهى الحسن ومعنى الكمال .
وينزل الثلج شتاء وصيفاً على جبل غرناطة وينبجس منه
سنة وثلاثون نهراً كما تنبجس من سفوحه العيون . قال أبو الحجاج
ابن حسان :

أحن الى غرناطة كلما هفت نسيم الصبا تهدي الصبا وتسوق
سقى الله من غرناطة كل منهل بمنهل سحب مأوهن هريق
ديار يدور الحسن بين خيامها وارض بها قلب الشجي مشوق
أغرناطة العلياء بالله خبري : ألهائم الباكي اليك طريق ؟
وما شاقني الا نضارة منظر وبهجة دار للعيون تروق
تأمل اذا أملت حوز مؤمل ومد من الحمرا عليك شقيق
وأعلام نجد والسكينة قد علت وللشفق الاعلى تلوح بروق
وقد سل شنيل فرنداً مهنداً نضى فوق در ذر فيه عقيق
اذا نم منه طيب نشر اراكه أراك فتيت المسك وهو فتيق
ومهما بكى جفن الغمام تبسمت ثغور أقاح و الرياض أنيق

ولما غدت غرناطة عاصمة ابن الاحمر من دولة بني نصر بالسيف
تارة وبمحسن السياسة مع الأحزاب المعادية أو بمحالفة القشتاليين
الاسبانيين وبني مرين المراكشيين تارة أخرى جعلها العرب الذين
طردها من المدن المجاورة وطناً لهم ونشط ملوكها الصنائع والتجارة

وعمروا الطرق والمجاري وتسلسل ذلك فيها فاتم الثاني مابداً به
الأول وزينوا البلاد بابنية بديعة فأصبحت غرناطة أغنى مدينة
في شبه جزيرة ايبيريا وبحكمة أمراءها انبعثت منها شعلة المدنية
المغربية في اسبانيا وأنت عنيتهم بالزراعة والصناعة عهد قرطبة
وما كان فيها من العلوم والصناعات وجمال البناء وأصبحت
قصورهم مثابة العلماء والأدباء والفلاسفة « فصارت المصر
المقصود والمعقل الذي تنضوى اليه العساكر والجنود » ولما
استولى عليها الاسبان سنة ١٤٩١ م بعد ان حاصروها سبعة
أشهر فنيت في خلالها ازواد المحاصرين من العرب وفنيت
خيولهم كما فنى كثير من نجدة الرجال بالقتل والجراحات — كان
سكانها نصف مليون نسمة (تقوسها اليوم ٧٦ ألفاً) فانحطت على
عهد الاسبان بعد حين وأقفرت من السكان بما أصدره الملوك
الكاثوليك من الأوامر الخرقاء ولما اشتدت فيها وطأة ديوان
التفتيش الدينى ظل الحكام والرهبان يستأصلون شأفة العرب
حتى لم يبقوا منهم باقية وكان لها على عهد العرب ١٠٣٠ برجاً
متزاحمة بالبيوت وقال ابن الخطيب ان الأبراج بلغت الى ما يناهز
أربعة عشر ألفاً وكان في جوارها ما ينيف على ثلاثمائة قرية عدا
ما يجاور الحضرة من قرى الاقليم أو ما استضيف اليها من حدود
الحصون المجاورة (وكان أكثرها امصاراً فيها ما يناهز خمسين

خطبة تنصب فيها لله المنابر وترفع الايدي وتتوجه الوجوه ويشتمل
سورها وما وراءه من الأرحاء الطاحنة بالماء ما ينيف على مائة
وثلاثين رحي

قصر الحمراء

١٦

هم الملوك اذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبالسن البنيان
أو ماترى الهرمين قد بقياوكم ملك محاه حوادث الازمان
ان البناء اذا تعاضم شأنه أضحي يدل على عظيم الشأن
الحمراء ويقال لها القسبة الحمراء ومعنى القسبة عندهم القلعة
وتسمى حمراء غرناطة وهي مظلة على مدينة غرناطة اطلال الصالحية
من سفح قاسيون على دمشق. سميت بالحمراء لاجرار جدرانها بل
للون التربة التي قامت عليها في سفح جبل غرناطة ومعظمها مبني
بالخزف والكلس والحصباء. وفي قسبة الحمراء قصور العرب وهي
ثلاثة قصور منفصلة عن القلعة وتدخل فيها المدينة الصغرى
القائمة على تلك الاكمة وقد بنى كل قصر منها في زمن غير زمن
القصر الآخر وبقى من القصر الأول شيء قليل وهي المقصورة
والكنيسة وكان جامعاً بناه محمد الثالث من ملوك بني نصر قال

فيه ابن الخطيب ان أعظم مناقبه المسجد الجامع بالحمراء على ماهو عليه من الظرف والتنجيد والترقيش ونخامة العمل وأحكام أنواع الفضة وابداع أثرها أنفق عليه من مال الجزية فظهر بها منقبة له يثيمة فاق بها من تقدمه ومن تأخره من قومه .

والقصر الثاني قصر الآس وفيه الآس الكثير كان مقر السلطان ومجلس الحكم أودار السلطنة يقعد فيه للمظالم ويستقبل السفراء وكبار رجال المملكة . والقصر الثالث منعزل عن القصرين الآخرين قليلا وكان فيه دائرة حرمة ومسكنه الخاصة وفي هذا القصر صحن الاسود وهو في الجزء الأوسط منه .

فقاعة السفراء عبارة عن مربع مساحته ١١ متراً بعلو ١٨ كان الملك يستقبل بها وفيها عرشه الى الشمال أمام المدخل وهي تطل على ربض البيازين ومدينة غرناطة وقد ركبت في كل نافذة وسطى أعمدة صغيرة من العجمي أو الشمسية تدفع حرارة الشمس . ونقش هذه القاعة من أجمل ما حوت الحمراء وكان فيها ١٥٢ صورة مختلفة طبعت بالجص الطرى على الجدران في قوالب من حديد وهي الى الحمرة والزرقة المشبعة .

أما فناء الاسود فهو صحن واسع فيه اثنا عشر أسداً رابضاً من الرخام تحمل الاناء العظيم القائم وسط الدار . ويخرج الماء من أفواهاها وتسيل الفوارات من أعلى الصحن الذي جعل قطعة واحدة كبيرة كأنه حوض واسع من أحواض بيوت دمشق .

القديمة وكان ابن حمديس الصقلي وصف هذه الدار عند ما وصف
دار المنصور ببجاية فقال :

واعمر بقصر الملك ناديك الذي اضحى بمجدك بيته معمورا
قصر لو انك قد كحلت بنوره أعمى لعاد إلى المقام بصيرا
واشتق من معنى الحياة نسيمه فيكاد يحدث للعظام نشورا
نسى «الصبيح» مع «الملح» بذكره وسما ففاق خورثقا وسديرا
ولو ان بالايوان قوبل حسنه ما كان شيئا عنده مذكورا
أعيت مصانعه على الفرس الاولى رفعوا البناء واحكموا التدويرا
ومضت على الروم الدهور وما بنوا ملوكهم شها له ونظيرا
اذ كرتنا الفردوس حين أريتنا غرفا رفعت بناءها وقصورا
فالمحسنون تزيدوا أعمالهم ورجوا بذلك جنة وحريرا
والمذنبون هددوا الصراط وكفرت حسناتهم لذنوبهم تكفيرا
فلك من الافلاك الا انه حقر البدور فاطلع المنصورا
أبصرته فرأيت أبداع منظر ثم اثنتيت بناظري محسورا
وظننت انى حالم فى جنة لما رأيت الملك فيه كبيرا
واذا الولا ئد فتحت أبوابه جعلت ترحب بالعفاة صيررا
عضت على حلقاتهن ضراغم فغانها لبدت تهصر عندها
تجرى الخواطر مطلقات أعنة فيه فتكبو عن مداه قصورا
بمرخم الساحات تحسب أنه فرش المها وتوشح الكافورا

ومحصب بالدر تحسب تربه
يستخلف الاصبح منه اذا انقضى
وضراغم سكنت عرين رئاسة
فكأنما غشى النضار جسومها
أسد كأن سكونها متحرك
وتذكرت فتكاتها فكأنما
وتخالها والشمس تجلو لونها
فكأنما سلت سيوف جداول
وكأنما نسج النسيم لمائه
وبديعة الثمرات تعبر نحوها
شجرية ذهبية نزعت الى
قد صولجت أغصانها فكأنما
وكأنما تأتي لواقع طيرها
من كل واقعة ترى منقارها
خرس تعدد من الفصاح فان شدت
وكأنما في كل غصن فضة
وتريك في الصهر ييج موضع قطرها
ضحكت محاسنه اليك كأنما
ومصفح الابواب تبراً نظروا
تبدو مسامير النضار كما علت

مسكا توضع نشره وعبيرا
صباحاً على غسق الظلام منيرا
تركت خرير الماء فيه زئيرا
وأذاب في أفواهاها البلورا
في النفس لو وجدت هناك مثيرا
أقعت على أدبارها لتثورا
ناراً وألسنها اللواחס نورا
ذابت بلا نار فعدن غديرا
درعاً فقدر سردها تقديرا
عيناي بحر عجائب مسجورا
سحر يؤثر في النهي تأثيراً
قنصت لمن من الفضاء طيورا
أن تستقل بنهضها وتطيرا
ماء كسلسال اللجين نميرا
جعلت تغرد بالمياه صفيرا
لانت فأرسل خيطها مجرور
فوق الزبرجد لؤلؤاً منشورا
جعلت لها زهر النجوم ثغورا
بالنقش بين شكوله تنظيرا
فلك النهود من الحسان صدورا

خلعت عليه غلائلاً ورسية
واذا نظرت الى غرائب سقفه
وعجبت من خطاف عسجده التي
وضعت به صناعه أقلامها
وكأنما للشمس فيه ليقّة
وكان ماء اللازورد مخرم
وكأنما وشوا عليه ملاءة
يامالك الارض الذي أضحي له
كم من قصور للملوك تقدمت
فعمرتها وملكت كل رياسة
وهناك قاعة الحكم وقاعة بني سراج والمقصورة . تخرج من
واحدة فتدخل في أخرى فتخالك في جنة عالية قطوفها دانية
لا تستطيع وصفها لبدائعها الكثيرة وهناك قاعة اسمها قاعة
الاختين كانت على ما يظهر لجلوس نساء الملك في الشتاء ونقشها
من أقصى ما بلغه النقش العربي من الاتقان وأهم ما فيها المقرنص
الذي حوى نحو خمسة آلاف شكل مختلف بعضها عن بعض تألف
منها مجموع يصعب وصفه لجماله وقبتها أعجوبة البناء ومثال الصبر
والعمل وكأنها كانت في يد صانعها كالعجين يعمل فيها ماشاء
من الصور أو كأنها خلقت خلقة ولم تمسها يد بشر
وبالقرب من قصور الحمراء جنة العريف وهي حديقة كبرى

فيها جميع أشجار القطر وأزهاره قامت هندستها في منحدراتها
واكثتها وبساتينها على أسلوب يأخذ بمجامع القلوب وفيها سطوح
ومغاور ومخابىء وفوارات وسياح تشبه المصايف الايطالية
في عهد النهضة وفيها كثير من شجر السرو ومن جملتها سروة
يدعونها سروة السلطان عمرها نحو ستمائة سنة وتحتها فيما يقال
تواعدت امرأة أبي عبد الله مع ابن سراج

ولقد كان للسلطان أوائل المئة الثامنة في غرناطة ما يناهز مائة
جنة مثل جنة العريف على ماروى صاحب الاحاطة وناهيك بمدينة
فيها مثل هذا العدد الدثر من الجنان وذلك في الحقيقة من أمارات
المدنية والرفاهية .

ورد ذكر الحمراء لأول مرة في واقعة حدثت سنة ٢٧٧ هـ
فاغتصم بها القيسيون من العرب وقد تأثرهم عصاة من الاسبانيين
فنجأ الأمير الأموي بجيلة غريبة وخرج مخرجاً مدهشاً مع رجاله
ولما استولى الموحدون على غرناطة التجأ المرابطون الى هذا القصر .
واشتهرت الحمراء على عهد دوله بنى نصر أو بنى الاحمر الذين استقلوا
بأمارة غرناطة بعد سقوط قرطبة واشبيلية وجعلوها عاصمتهم
فأنشأ محمد بن الأحمر قصره الملكي بالقرب من السور والقلعة وفي
عهد الامبراطور شارل كان جعل جامع الحمراء كنيسة فأبدلت
صورة القصر الملكي القديم وأنشئ باب المدخل الذي يجتاز منه
السور الذي طوله ٣٥٠٠ متر وفيه عدة أبراج .

وقالوا ان فرديناند وايزابيللا الكاثوليكية عنيا كل العناية
بالحمراء لما اغتنام فرصة اختلاف العرب وأمرائهم وعزما على
اخراج جميع العرب من اسبانيا وقد أمر ا بترميم نقوشها الداخلية
ورمما جدرانها وكان شارل كان على شدة حرصه على آثار الحمراء
والابقاء عليها عمر مباني ليخلد فيها اسمه ولكنها لم تتم وأوردوا
في معرض البرهان على ولوعه بالآثار العربية ما نسب اليه من
القول عند ما وقع بصره على آثار الحمراء : يا لشقاء من أضع كل
هذا .

جاء في دائرة المعارف الاسلامية : واذا وقع التنظير بين قصر
الحمراء والقصور والجوامع التي بنيت على ذلك العهد في القاهرة
مثلا كجامع السلطان حسن الذي بنى سنة ١٣٥٦ م تميز الفرق
العظيم بين البنائين فانك ترى لهندسة جامع القاهرة أمثالا كثيرة
في حين بنى قصر الحمراء على غير مثال محتذى ولا يوجد في مملكة
من الممالك قصر اسلامي مثل الحمراء وبقدمه لم يبين له شبيه مع
انه شيد بمواد سريعة الانحلال اللهم الا اُبنية العصر الأموي
التي عثر عليها الباحثون في بادية الشام شرقي بلاد موآب وبعض
الخرائب من العصر العباسي في سامرا والرقرة .

وقصارى القول ان الحمراء مصيف تحف به حدائق واسعة
ومتزهات وفيه المياه الجارية والنبات والحيوان الكثير ونقوشه
بهر الأَبصار وفي مسالك الأَبصار: ان الحمراء كثيرة المباني الضخمة

والقصور ظريفة جداً يجري بها الماء تحت بلاط كما يجري في المدينة
فلا يخلو منه مسجد ولا بيت وبأعلى برج منها عين ماء وجامعها من
أبدع الجوامع حسناً وأحسنها بناء وبه الثريات الفضية معلقة
وبجائط محرابه أحجار ياقوت مرصعة في جملة ما نطق به من الذهب
والفضة ومنبره من العاج والآبنوس .

ولما استولى ملوك قشتالة على الحمراء سموها الى مهندسين
من العرب بلغ من حذقهم انك لا تعرف ما أدخلوه فيها من الاصلاح
ولا تميزه عن الاصل الذي كانت عليه من قبل . ودام هذا
الترميم في الحمراء الى ثورة العرب سنة ١٥٦٩ وفي سنة ١٥٢٢
أصيبت بهزة أرضية وفي سنة ١٥٩٠ بحريق في مطحنة بارود
سببت خراب أقسام منها ثم تركت وشأنها في القرن السابع عشر
والثامن عشر وقد نسف جنود نابليون سنة ١٨١٢ قسماً منها
بالمواد الملتهبة معتبرين الحمراء حصناً وذلك عند جلائهم عن اسبانيا
ثم أخذت همّة حكومة اسبانيا تتجدد لاعادة الحمراء الى حالتها
الأولى .

ويقول جوسيه ان ملوك اسبانيا لما دخلوا الحمراء لم يعاملوا
آثار خصوصهم معاملة أعداء بل معاملة أصحاب . وبعد ان ذكر
كيف كانوا يتعهدونها وكيف عهدوا الى مهندسين من العرب
استخدموهم لترميمها قال : وأهملت الحمراء من بدء القرن
السابع عشر الى أواسط القرن الثامن عشر فأخذ يسكنها جنود

بباطرة وأرباب حرب وحاكة وفاخرايينون وأسران فقيرة
فكانت الأوساخ فيها وفي جدرانها والناس يعبثون بما فيها وربما
أصابها شيء من البارود والقذائف فتبدلت محاسنها وبليت بعض
حيطانها ونقوشها ورسومها ومعالمها ثم صحت نية حكومة اسبانيا
على تعهد تلك القصور وارجاعها الى حالها وكانت الهمة في هذا
الشأن تفر ثم تتجدد بحسب سلطان ملوك اسبانيا ودرجتهم من
العقل والفهم .

وفي هذا القصر أو المدينة البديعة ما عدا الآثار العربية
قصر شارل كان أراد أن يوسع به دائرته سنة ١٥٢٦ بناه من
الجزية التي كان يتقاضاها من العرب للسماح لهم باجراء بعض
شعائرهم . ومن أعمال شارل كان ابنية لم تتم لقلّة المال فيما يظهر
والغالب انه حاول بما أنشأه من الأبنية ان يطمس آثار العرب
ليجعل لبنائه الرجحان فلم يتم له ما أراد وبقيت الحمران أجمل مثال
في القصور على مر العصور والدهور .

وليس في الحمران من الفرش والأواني الباقية من عهد العرب
سوى جرة طولها أكثر من متر صنعت من تراب بالميناء ولها
لمعان لازوردي وذهبي رسم عليها حيوانات ونقوش عربية وهي
من صنع معامل غرناطة في القديم

هذه صورة مصغرة من وصف هذا القصر وما طرأ عليه إلى
يومنا هذا وهو مقصد السائحين من أهل الأرض وكان ابن حمدليس
وصفه اذ قال :

قصر يقصر وهو غير مقصر
وكأنه من درة شفافة
لا يرتقى الراقى الى شرفاته
عرج بأرض الناصرية كى ترى
فى جنة غناء فردوسية
وتوقدت بالجمر من ناريجها
وكأنهن كرات تبر أحمر
ان فاخر الأترج قال له ازدجر
لى نفحة المحبوب حين يشمى
منى المصبغ حين يبسط كفه
والماء منه سبائك فضية
وكأنما سيف هناك مشطب
كم شاخص فيه يطيل تعجباً
عجباً لها تسقى الرياض ينالها
خصت بطائرة على فنن لها
قس الطيور الخاشعات بلاغة
فاذا أتيح لها الكلام تكلمت
وكأن صانعها استبد بصنعة
أوفت على حوض لها فكانها
فكانها ظنت حلاوة مأها

عن وصفه فى الحسن والاحسان
تعشى العيون بشدة اللعان
الا بمعراج من اللحظان
شرف المكان وقدرة الامكان
محفوفة بالروح والريحان
فكأنما خلقت من النيران
جعلت صوالجها من القضبان
حتى تجوز طبائع الأيمان
طيباً ولون الصب حين ترانى
فبنان كل خريدة كبنانى
ذابت على درجات شاذروان
القتة يوم الحرب كف جبان
من دوحة نبتت من العقيان
نبعت من الثمرات والاعصان
حسنت فافرد حسنها من ثان
وفصاحة من منطق وبيان
بخرير ماءً دائم الهملان
نخر الجماد بها على الحيوان
منها إلى العجب العجاب روانى
شهداً فذاقته بكل لسان

وزرافة في الجوف من أنبوبها
مركوزة في الرمح حيث ترى له
وكأنها ترمي السماء بيندق
لو عاد ذاك الماء تقطاً أحرقت
في بركة قامت على حافاتها
نزعت إلى ظلم النفوس نفوسها
وكان برد الماء منها مطفىً
وكانت الحيات من أفواهما
وكانت الحيتان إذ لم تحشها
كم مجلس يجري السرور مسابقاً
يجلودماه على الحدود ملاحه
فسماؤه في سمكها علوية
ماء يريك الجرى في الطيران
من طعنه الحلق انعطاف سنان
مستنبط من لؤلؤ وجمان
في الجومنه قميص كل عنان
أسد تذل لعزة السلطان
فلذلك انتزعت من الأبدان
ناراً مضمرة من العدوان
يطرحن أنفسهن في الغدران
أخذت من المنصور عقد أمان
منه خيول اللهو في ميدان
فكانه المحراب من غمدان
وقبابه فلكية البنيان

كتابات الحمراء

١٧

تقرأ في قصر الحمراء كثيراً من الآيات والمواعظ والأشعار
زبرت على الحجر أو بالجلس بالخط الأندلسي المشبك وهو أقرب
إلى النسخ المتعارف في هذه البلاد الشرقية منه بالخط المغربي ومما

تقرأه على أحد الأبواب « أمر ببناء هذا الباب المسمى بباب
الشريعة أسعد الله به شريعة الاسلام كما جعله فخراً باقياً على
الأيام مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج
يوسف ابن مولانا السلطان المجاهد المقدس أوى الوليد بن نصر
كافى الله فى الاسلام صنائعه الزاكية وتقبل أعماله الجهادية فشيده
ذلك فى شهر المولد المعظم من عام تسعة وأربعين وسبعمائة جعله
الله عزة واقية وكتبه فى الأعمال الصالحة الباقية »

ومنها « الملك الدائم والعز القائم » ومنها « الحمد لله على
نعمة الاسلام » ومنها « عز لمولانا أبى عبد الله » ومنها « ولا
غالب الا الله » ومنها « وما بكم من نعمة فمن الله » ومنها « النصر
والتكين والفتح المبين لمولانا أبى عبد الله أمير المسلمين »
ومنها « وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم » ومنها « فالله
خير حافظاً وهو أرحم الراحمين » ومن الأبيات التى رسمت على
احدى القباب فى مدح أبى الحجاج يوسف الأول

تبارك من ولاك أمر عباده	فاونى بك الاسلام فضلاً وأنعماً
فكم بلدة بالكفر صبحت أهلها	وأمسيت فى أعمارهم متحكماً
وطوقتهم طوق الاسار فأصبحوا	ببابك يبنون القصور تحمداً
وفتحت بالسيف الجزيرة عنوة	ففتحت باباً كان للنصر مهماً

ولو خير الاسلام فيما يريده لما اختار الا أن تعيش وتسلم

الى أن قال :

فأمنت حتى الغصن من نفحة الصبا وأرهبت حتى النجم في كبد السماء
فإن رعشت زهر النجوم نخيفة وإن مال غصن البان شكرك يما
ومنها :

ومن قبلها استفتحت عشرين معقلا وصيرت ما فيها لجيشك مغنما
وكتب في قاعة السفراء

أنا محلاة عروس ذات حسن وكمال

فأنظر الأبريق تعرف فضل صدقي في مقال

واعتبر تاجي تجده مشبهاً تاج الهلال

وابن نصر تسم فلك في ضياء وجمال

دام في رفعة شأن آمناً وقت الزوال

وكتب أيضاً

وحكيت كرسى العروس وزدته اني ضمننت سعادة الأزواج

من جاءني يشكو الظماء فموردي صرف الزلال العذب دون مزاج

فكأنني قوس الغمام اذا بدا والشمس مولانا أبو الحجاج

لا زال محروس المثابة ماغدا بيت الأيلاء مثابة الحجاج

وكتب على القبة

تحميمك مني حين تصبح أو تسمى ثغور المنى واليمن والسعد والأنس

هي القبة العليا ونحن بناتها ولكن لي التفضيل والعز في جنسي

جوارح كنت القلب لاشك بينها

وفي القلب تبدو قوة الروح والنفس

وان كان أشكالي بروج سمائها ففي عدا ما بينها شرف الشمس
ومما كتب أيضاً على بركة صحن الاسود وهو من نظم
الوزير أبي عبد الله محمد بن يوسف بن زمرك تلميذ لسان الدين
ابن الخطيب :

تبارك من أعطى الامام محمداً مغاني زانت بالجمال المغانيا
والا فهذا الروض فيه بدائع أبي الله أن يلفي لها الحسن ثانيا
ومنحوتة من لؤلؤشف نورها تحلى بمرفض الجمال النواحيا
يدوب لجين سال بين جواهر غدامثلها في الحسن أبيض صافيا
تشابه جار للعيون بجامد فلم ندر أيأ منهما كان جاريا
الم تر ان الماء تجرى بصفحها ولكنها مدت عليه المجاريا
كمثل محب فاض بالدمع جفنه وغيض ذاك الدمع اذخاف واشيا
وهل هي في التحقيق غير غمامة تقيض الى الآساد منها السواقيا
وقد أشبهت كف الخليفة اذغدت تقيض الى أسد الجهاد الاياديا
فيامن رأى الآساد وهي روايض عداها الحيامن أن تكون عواديا
وياوارث الانصار لاعن كلاله تراث جلال تستخف الرواسيا
عليك سلام الله فاسلم مخلداً تجدد أعياداً وتبلى أعاديا
ومما كتب في احدى القاعات أيضاً من نظم الوزير ابن زمرك

أنا الروض قد أصبحت بالحسن حاليا

تأمل جمالي تستفد شرح حاليا
أباهي من المولى الامام محمد با كرم من يأتي ومن كان ماضيا

ولله مبناه الجميل فانه
فكم فيه للابصار من متنزه
تبیت له خمس الثريا معيدة
به القبة الغراء قل نظيرها
تمد لها الجوزاء كف مصافح
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت بها
ولومثلت في ساحتها وسابقت
ولا عجب ان فاقت الشهب في العلى
فبين يدي مولاي قامت لخدمة
بها البهو قد حاز البهاء وقد غدا
وكم حلة قد جلته بجليها
وكم من قسى في ذراه ترفعت
فتحسبها الافلاك دارت قسيها
سواري قد جاءت بكل غريبة
به المرمر المجلو قد شف نوره
اذا ما اضاءت بالشعاع تخالها
فلم تر قصر آمنه اذ نمت لضره
مصارفة النقدين فيه بمثلها
فان ملأت كف النسيم مع الضحى
فيملاً حجر الروض حول غصونها

يفوق على حكم السعود المبانيا
تجد به (?) نفس الحليم الامانيا
ويصبح معتل النواسم راقيا
ترى الحسن فيها مستكناً وباديا
ويدنو لها بدر السماء مناجيا
ولم تك في أفق السماء جواريا
الى خدمة ترضيه منها الجواريا
وان جاوزت فيها المدى المتناهما
ومن خدم الاعلى استفاد المعاليا
به القصر آفاق السماء مباهايا
من الوشى تنسى السابري اليمانيا
على عمد بالنور بانث حواليا
تظل عمود الصبح اذ لاح باديا
فطارت بها الأمثال تجرى سواريا
فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
على عظم الاجرام منها لا آليا
واعطر ارجاء وأحلى مجانيا
أجاز بها قاضى الجمال التقاضيا
دراهم نور ظل عنها مكافيا
دنابير شمس تترك الروض حاليا

ومن الأبيات اللطيفة

وجاد بها برد الهواء نسيما فصحت هواء والنسيم قد اعتلا
وقد حزت من كل المحاسن غاية تقبس عنها الشهب في الافق الأ علا
واني بهذا الروض عين قريرة وانسان تلك العين حقاً هو المولى
وفي الاندلس الى اليوم على كثرة ما انتاب مصانعها وقلاعها
ومدارسها وتربها وجسورها وسدودها من التخريب لا تزال ترى
بعض كتابات من النظم والنثر وبعضها مثال البلاغة والفصاحة
لأن الاندلسيين عاشوا وتعمموا في أرض معتدلة الهواء جميلة
الطبيعة فلا بدع ان جادت القرائح على تلك النسبة وظهرت في كتابهم
وشعرائهم آثار الابداع والاعجاب .

ذكري مؤمنة

١٨

مضت أعوام تلتها أعوام ، والنفس تتحدث بالارتجال الى
الاندلس المحبوبة ، تستنفض معالمها ومجاهلها ، وتستبطن معاهدها
ومصانعها ، فتتدبر ، وتذكر ، وتستفيد وتفيد . ولما اتاحت لها
الاقدار ، بلوغ تلك الامصار ، عرض لها ما كدر صفو تلك الذكري ،

ذكرى التطواف في الاندلس بعد عزها للاعتبار ، بالدمى والاحجار ،
واستنطاق الآثار ، واستقراء الاخبار ، لمعرفة عمل العرب
في تلك الديار . .

اتفق نزولى غرناطة في اليوم الثاني من كانون الثاني ، اليوم
الذي خرج فيه أبو عبد الله آخر ملوك بني الاحمر من عاصمة
الاندلس ، وانتقلت أحكامها الى أيدي الغالبين من الاسبانيين ،
والجرس يدوي في كنيسة الحمراء دويماً متواصلاً لا متساوياً مدة
أربع وعشرين ساعة ، احتفالاً بهذا اليوم الذي يعده أهل
اسبانيا عامة وسكان غرناطة من بينهم خاصة من أسعد أيامهم الغر .
احتفلوا به ضروب الاحتفال ، ومن جملة مظاهر سرورهم مأدبة
أدبها يومئذ شيخ مدينة غرناطة في النزل الذي حلته في جوار
الحمراء واسمه نزل « واشنطون » على اسم واشنطون محرراً ميركا
الشمالية وقد حضر المأدبة عظماء المدينة وشربوا وطربوا على ذكر
استيلاء أجدادهم على آخر أرض احتلتها العرب من شبه جزيرتهم .
تذكرت ذلك اليوم المشؤوم ، وقد رفع الصليب الفضي
على أعلى برج في الحمراء اشارة الى ظفر الاسبان الاخير وخروج
العرب من هذه الديار ، وقد أخذ أبو عبد الله بن الاحمر يتحفز
في حاشيته ليخرج من الحمراء قبل أن يبعثه العدو فيها ، ويتلفز
وهو يجتاز جبل الثلج الى غرناطة البديعة فيتنهد ويبكي ، وأمه
ترافقه وتقول له : لا تبك كالنساء ملكاً لم تستطع أن تحافظ عليه
كالرجال .

كل سنة يبالغ القوم هنا بعيد غر نطة السنوى وقد احتفلوا
به حتى اليوم أربعائة وثلاثين سنة يتذكرون كل مرة نصرتهم
على أعدائهم ويوماً تمت لهم فيه وحدتهم القومية والدينية ،
وقد مثلوا أفضع مأساة ارتكبتها أنفسمت عصبة جاهلة ، وسلوكوا
للخلاص من مخالفيهم طرقاً بشعة ، لم يسلكها هؤلاء معهم يوم
استصفوا أرضهم وحلوا دياراتهم ، وهم في رفعة ومنعة ، وغبطة
وسعة . يحشدون يوم الحفل رجالهم ونساءهم وذرائعهم يحفزون
أرواحهم ليوقظوها ، ويهيجون كوامن الصدور ليعتبروا بما
وقع لهم في سالف العصور وليعلموهم ان غلبة سنة ١٤٩٢ وان
كانت من باب تسلط الجهل على العلم الا أنها دلت على أن الثأر
لا ينسى ولو بعد ثمانية قرون .

وما كان أجدر بالعرب ان يعدوا آخر يوم خرجوا فيه من
الاندلس من أيام البؤس ، المشتملة بالحزن ، المملوءة بالاستعبار ،
يتناشدون فيه التعازى والمرائى ، ويتطارحون حديث محنة
مضت ، وتذكارها المؤلم لم يبرح يتجدد ، وشرر شرها لم يزل
يتولد ويتوالد .

قيل ان أناساً من جالية الاندلس في بر العدو ما برحوا الى
اليوم وقد انقضت أربعة قرون على مغادرتهم بلداً نبت لهم فيه
العز ، وأثمر المجد والسعد ، يخلف الوالد منهم لبنيه في جملة مخلقاته ،
مفاتيح داره في الاندلس على أمل أن يعود أولاده اليها ذات

يوم ويفتحوها وينزلوها . تذكّار ان عدده بعضهم في باب الهزل ،
وقيده في سجل المستحيلات ، يحوى ولا جرم في مطاويه أجمل
العظات ، وأعظم التذكارات .

وحقيق بكل بلد للعرب فقد استقلاله ان يقيم كل سنة المآتم
على ما حل به خصوصاً في البلاد التي يبعث فيها المتغلبون بمشخصات
المغلوبين فان بعض العناصر الاوربية كالاسبان لم يكتفوا بطرد
العرب من بلادهم بل يحاولون اليوم في الريف من بلاد مراکش
ان يجلوهم عنها بعد ان تأصلت كلمتهم فيها منذ ثلاثة عشر قرناً
أقاموا خلالها مدنيات وانشأوا أمجاداً لهم ودولت .

ان العرب الذين أنشأوا من العدم مدينة الاندلس وقاموا
في عصور الظلمات بأعمال لا يكاد يصدق الناظر اليها انها بنت
قرائنهم ، وثمره عقولهم ، لو لم تتناصر على ذلك أصدق الروايات ،
لا يعجزهم اليوم ، والعصر عصر النور ، أن يقوموا بمثل ما عمله
أجدادهم ، لو نفس خناقهم ، وملكوا زمناً قياداً أنفسهم . بعض
أهل الغرب اليوم حرب على الشرق وسوف تكون لهذا الغلبة
للاحتفاظ بدياره وآثاره ، وأمامه اسبانيا والبورتقال اللتان تأرتا
لنفسهما من مستعبيديهما بعد قرون ولم تكونا في رقي العرب
اليوم عدداً وعدداً ، ومضاء وغناء .

أضعف أمة اليوم في الغرب لا يبلغ عدد أهلها عدد أهل
أقليم واحد من أقاليم العرب أو قطر من أقطارهم تتناغي الليل

والنهار بآثارها وتتحدث بمفاخر أجدادها وتقديس أعمال نوابغها
ورجالها ولا تنسى يداً للمحسن إليها ، ولا اساءة مجرم جان عليها .
العرب توغلو يوم اشتد سلطانهم في جنوبي أوربا ونشأت لهم
حكومات في شبه جزيرة أيبيريا وجزيرة صقلية وسردانية فأرتكبوا
بذلك جنائية في عرف أهل تلك الديار ، أفليس من العدل ان تعترف
لهم هذه الهفوة أو الغزوة ، في جانب ما حملوه الى من غلبوهم من
ضروب المعارف والصناعات ، ومستحسن الآداب والأخلاق .
العرب حملوا الى الاندلس حضارة رائقة ، ونظاماً محكماً ، أحلوا
محل الفوضى والتوحش ، والسخافات والخرافات .

تود كل أمة اليوم مهما بلغ من تراجع الحضارة بينها ان تحكم
نفسها بنفسها وتمثل مشيختها ومقدساتها ، فهل ينال العرب هذه
الأمنية وهم ليسوا دون بعض الأمم الاوربية التي أخذت تتمتع
الواحدة تلو الأخرى باستقلالها منذ قرن من الزمن فليس كل أمم
أوربا بحضارتهم الانكليز والالمان والفرنسيين ولا كل الشعوب
العربية على مستوى واحد في الحضارة والنور .

جبل المسلمين وتصير لهم

١٩

لما استولى العرب المسلمون على الاندلس لم يكرهوا أحداً
من سكان البلاد الاصليين على الدخول في دينهم ، بل أظهروا
التسامح المقبول الذي يأمرهم به الدين الحنيف ، وأطلقوا للناس
حريتهم في ذلك ، فكان بعض الاسبانيين يدينون بالاسلام برضاهم .
فعهد العرب اذاً في الاندلس كان عهد تسامح وحرية ، لم
تعهد من قبل ولا من بعد ولم يمنع عن بث الدين المسيحي
الادعائه المفرطون ، ممن كانوا يقفون على أبواب المساجد والجوامع ،
ويدعون المسلمين الى دينهم ، ولا جوزوا أخذ مال أحد من أهل
ذمتهم بل اكتفوا بجزية بسيطة ، وساووهم في جميع الامور بانفسهم .
مثال من لطف الحكم تعلمه الفاتحون من كتابهم فلم يجيدوا
عنه قيد غلوة ، وهم في عز سلطنتهم ، والقول الفصل في الارض كلها
لهم ولقومهم مدة قرون طويلة .
هكذا فعل العرب في اباذ قوتهم ، فانظر ماذا صنع الاسبان
يوم قوى سلطنتهم وكيف عاملوا العرب نقلا عن شاهد العيان قال :
لما استولى صاحب قشتالة على مدينة بلش عام اثنين وتسعين
وثمانمائة ودخلت في ذمته جميع القرى التي تلي بلش وقرى جبل

منتهميس وحصن قمارش خرج أهل بلش من بلدهم مؤمنين، وحملوا
ماقدروا على حمله من أموالهم فمنهم من جوزه العدو الى أرض
العدوة ومنهم من أقام في بعض تلك القرى ومنهم من صار الى
أرض المسلمين التي بقيت بالاندلس .

ولما استولى الغالبون على مدينة مالقة وباش وجميع الجهات
الغربية لم يبق للمسلمين في تلك الناحية ملجأ . وفي عام ثلاثة
وتسعين وثمانمائة خرج العدو نحو حصون الشرقية وكانت في صلحه
فاستولى على تلك الحصون كلها وفي سنة ٨٩٤ خرج نحو حصن
موجر فاستولى عليه وعلى الحصون القريبة منه ومن مدينة بسطة .
وكان صاحب قشتالة كثيراً ما يستعين بالمرتدين والمدجنين
على قتال المسلمين يدلونه على عوراتهم ، ولظالما أمر بهدم المدن
والقرى التي يستولى عليها يبنى بأنقاضها مسورات في بضعة
أيام كما فعل في غرناطة . ومن جملة الشروط التي شرط أهل غرناطة
على ملك قشتالة أن يؤمنهم في أنفسهم ونساءهم وصبياهم ومواشيهم
ورباعهم وجناتهم ومحارثهم وجميع ما بأيديهم ولا يغرمون الا
الزكاة والعشر لمن أراد الاقامة ببلدة غرناطة . ومن أراد الخروج
منها يبيع أصله بما يرضاه من الثمن لمن يريد من النصراري والمسلمين
من غير غبن ، ومن أراد الجواز لبلاد العدو بالغرب يبيع أصله ،
ويحمل أمتعه ، ويحمله في مراكبه الى أي أرض أراد من المسلمين
من غير كراء ولا شيء يلزمه لمدة ثلاث سنين ، ومن أراد الاقامة

من المسلمين بغرناطة فله الامان على نحو ما ذكر وكتب لهم بذلك كتاباً ، وأخذوا عليه عهداً ومواثيق في دينه مغلظة . وبعد ذلك أخلى المسلمون مدينة الحمراء كما أخلوا غرناطة ودخلها الاسبانيون . ولما سمع أهل البشارة ان أهل غرناطة دخلت تحت ذمة النصراني أرسلوا بيعتهم الى ملك الروم ودخلوا في بيعته فلم يبق للمسلمين موضع بالاندلس .

ولقد صرح صاحب قشتالة للمسلمين بالجواز الى الساحل فصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره فكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة الواسعة المعتبرة بالثمن القليل ، وكذلك يبيع جنانه وأرض حرثه وكرمه وفدانه بأقل من ثمن الغلة التي كانت فيه ، فمهم من اشتراه منه المسلمون الذين عزموا على الدجن ، ومنهم من اشتراه منه النصراني وكذلك جميع الحوائج والأمتعة ، ومن المسلمين من طمعوا في عناية ملك النصراني بهم فاشتروا أموالاً رخيصة وأمتعة وعزموا على المقام في الاندلس .

ثم ان الملك أمر الأمير محمد بن علي بالانصراف من غرناطة الى قرية اندرش من قرى البشارة فارتحل بعياله وحشمه وأمواله وأتباعه ، ثم ظهر له أن يصرفه فبعث للمراكب تأتي لمرسى عذرة واجتمع معه خلق كثير ممن أراد الجواز فركب الأمير محمد ومن معه في تلك المراكب حتى نزلوا مدينة مليلة ففاس من عدوة المغرب .

وأخذ ملك الاسبان بعد حين ينقض الشروط التي اشترطها عليه المسلمون ، وشرع يفرض عليهم الفروض ، وثقلت عليهم المغارم ، وقطع لهم الاذان ، وأمرهم بالخروج من مدينة غرناطة الى الارباض والقرى ، وبعد ذلك دعاهم الى التنصر وأكرههم عليه وذلك سنة أربع وتسعمائة فدخلوا في دينه كرها وصارت الاندلس كلها نصرانية ، وامتنع بعض أهل الأندلس من التنصر كأهل قرية ونجر والبشرة وندرش وبلفيق ، فأحاط بهم ملك قشتالة وقتل رجالهم وسبي نساءهم وأخذ صبيانهم وسلب أموالهم ونصرهم واستعبدهم ، وامتنع أناس في غربي الاندلس من التنصر وانحازوا الى جبل وعر منيع ، فلما امتنعوا عليه وقتلهم فلم ينل منهم منالا أعطاهم الامان على ان يجوزهم لعدوة المغرب مؤمنين على ان لا يسرح لهم شيئاً من أموالهم غير الثياب التي كانت عليهم وجوزهم لعدوة المغرب كما شرطوا ولم تقم للاسلام والمسلمين بعد ذلك قائمة .

قال السلاوى : التزم أهل غرناطة طاعة صاحب قشتالة لما استولى عليها سنة سبع وتسعين وثمانمائة والبقاء تحت حكمه ولما نقض الشروط وهي سبعة وستون شرطاً عروة عروة ومنها اقامة شريعة المسلمين على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم الا بشريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والاقواف كذلك الى أن آل الحال لملهم على التنصر فتنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة ، وكان أهل الاندلس

كثيرا ما يهاجرون الى بلاد الاسلام غير ان عامتهم كانوا قد تخلقوا بأخلاق العجم (غير العرب من الاسبان) وأثر فيهم ذلك أثراً ظاهراً لطول صحبتهم لهم ، ونشأة أعقابهم بين أظهرهم الى ان كانت سنة ست عشرة وألف ، فهاجر جميع من لم يتنصر منهم الى بلاد المغرب وغيرها ، وفي خلال ذلك منع العرب من التكلم بالعربية (١) .

قال المقرئ : كان النصارى بالاندلس قد شددوا على المسلمين بها في التنصر حتى انهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ومنعواهم من حمل السكنى الصغير فضلا عن غيرها من الحديد وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله لهم نصراً الى ان كان اخراج النصارى اياهم اعوام سبعة عشر وألف فخرجت ألوف بفاس وألوف آخر بتلمسان ووهران وخرج جمهورهم بتونس وخرج

(١) لما انقرضت دولة العرب وبقى بعضهم فيها حافظوا على دينهم مع شدة الاضطهاد ولكنهم نسوا أو الزموا باهمال اللغة العربية وصارت اللغة القشتالية أى الاسبانية ملكة متوارثة فيهم فكتبوا علومهم بها لكن بحروف عربية وسموها (الجميادو — Aljamiado) ووجه التسمية أن العرب يسمون كل ما ليس بعربي اعجمياً وجرى على منوالهم الاندلسيون فكانوا يسمون اللغة القشتالية أى الاسبانية باسم «الاعجمية» ثم انتقلت هذه اللفظة الى اللغة الاسبانية بغير حرف العين لعدم وجود ما يقابله في اللغات الافرنجية فصارت الكلمة مقابل هذا الصوت (الاجاميا) ولما كان أهل اسبانيا يقبلون أغلب الحيات خات قالوا (الاخاميا) أو (الجميا) ورسموها بحروفهم هكذا بعد أن سكنوا حركة اللام (Alj amia) وعلامة النسبة عندهم do توضع في آخر الكلمة فلذلك قالوا (Aljamiado) أى الاعجمي . (السفر الى المؤمن)

طوائف بتطاوين وسلا والجزائر وعمروا القرى واغتبط بهم الناس
وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفههم^(١) ووصل جماعة منهم الى
القسطنطينية والى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام .

* * *

هذا مارواه مؤرخو العرب واليك ما قاله مؤرخو الافرنج
في هذه الكارثة : جاء في التاريخ العام للافيس ورامبو : صحت النية
سنة ١٦٠٩ على نفى العرب Les morisques وكانوا يؤلفون
عنصراً خاصاً عصى على التمثل ولم ينزل عن مشخصاته ومميزاته
على كثرة ما بذل فيدب الثاني من الجهد فوقع الاتفاق على التذرع
بكل ما يمكن لاهلاكهم فعمدت الحكومة الى الخروج عن القانون
بدعوى قيامها بما فيه سلامتها ولايجاز وحدة اسبانيا وانقاذ
البلاد من أولئك المحالفين سراً للاتراك والانكليز والفرنسيين على

(١) قال ابن ابي دينار ان المهاجرين من الاندلس الى تونس سنة
١٠١٧ - ١٠١٨ هـ كانوا خلقاً كثيراً فوسع لهم عثمان داي في البلاد وفرق
ضعفاهم على الناس واذن لهم ان يعمرؤا حيث شاؤوا فاشترؤا الهناشير وبنؤا
فيها واتسعؤا في البلاد فممرت بهم واستوطنؤا في عدة أماكن وبنؤا أكثر من
عشرين بلداً فصار لهم مدن عظيمة وغرسؤا الاشجار ومهدؤا الطرقات بالكراريط
للمسافرين وصارؤا يعدون من أهل البلاد ، وذكر السيد حسن حسني عبد الوهاب
من علماء تونس في رسالة بالفرنسية ذكر فيها أصول التونسيين انه دخل
تونس في القرنين ونصف القرن الذي انتهى بها جلاء العرب عن الاندلس
لا أقل من مئة ألف أندلسي وأن الطبقة المتعدنة الغنية من الاندلسيين
نزلت مدينة تونس واختلطت بأهلها وقلدهم ملوك بني حفص فيها خطط القضاء
والادارة والتعليم .

حين اشتدت شوكة قرصان البحر من البربر وهزري الرابع يضع
خطه السرية فحذرت اسبانيا العواقب وقام رئيس اساقفة بلنسية
يدعو الى طرد العرب مدعياً ان منهم تسعين ألفاً يستطيعون حمل
السلاح واذا أغار على اسبانيا عدوها تسوء حالها ويخرج موقعها .
واذ كان القشتالي كسلاناً فقيراً كان يكره من العرب منافستهم
الشديدة له التي اكسبتهم غني بفضل اقتصادهم نادى رئيس الاساقفة
ان مما يخشى منه ان يحتكر هؤلاء العرب جميع ثروتنا ويؤدوا
بالمسيحيين الى العدم والشقاء . وقال غير هانهم يدخرون على الدوام
وعلمهم عبارة عن سرقتنا فهم الدودة التي تقرض اسبانيا . وعلى
هذا كان من التعصب الديني ان قضي على العرب . ولما تعذر
تنصيرهم رأوا ان الطريق الوحيد الى الخلاص من خطرهم المادي
والمعنوي يكون بطردهم فقوى نفوذ رجال الكهنوت على ممثلي
طبقات الاشراف في البلاد وكانت عقول هؤلاء أكثر استنارة
يحرصون على الاحتفاظ بالعرب في بلادهم لانهم عاملون ينفعونهم
بعملهم ويدرون عليهم ريعاً كبيراً فقاموا ينكرون الشدة التي
ارتأى أن يعمد اليها المجلس والحبر نديم الملك فلم يلبث بقايا
العرب في بلنسية والاندالس ومرسية وقشتالة وارغون وكتلون
ان غربوا (ايلول ١٦٠٩ تموز ١٦١٠) وحملوا الى أفريقية حيث
هلك عدد كبير منهم وثار أربعون ألفاً منهم فاعتصموا في جبال
بلنسية فذبحوا أو استعبدوا ففقدت اسبانيا بهم على أقرب تقدير

من خمسمائة الى ستمائة ألف من أحسن العاملين في الزراعة والصناعات
وعجبات بذلك خرابها وبعملها هذا ابتاعت وحدثها الدينية بالثمن
الغالى وفرح الرأى العام الاسبانى اذ ذاك بما تم في هذا الشأن
وعدوه من أعظم الاعمال التي قامت في عهد ملكهم ومنهم من
رأوه نعمة من السماء ! وقال مؤرخ اسباني : يا لسعادة ملك توفق
الى أن يعمل هذا العمل من طرد العرب ، ولكن الامم خارج
اسبانيا عدوا عمل الاسبانيين من تغريب العرب جنوناً بل وصفه
ريشليو بأنه أفظع عمل بربري ذكره تاريخ القرون .

وفي التاريخ العام أيضاً أن خضوع العرب في اسبانيا
قد أقلق ملوك الكاثوليك (١) وفتح أمامهم مسألة تطالوا الى
حلها بمعاهد في عنصرهم من المضاء الوحشى وبما اشهرت به
قرون التدين من التعصب وعدم التسامح فرأوا ان بعض مئات
الالوف من الاسرائيليين والمسيحيين يكثرون سواد المخالفين
وهم كثير نسلهم لا يعلم ماذا يكون منهم وهم على ما هم فيه من
النمو يغتنون ويعملون فاشتد القلق من قوم يخالفون الاسبانيين
بخصارتهم بل يعجبون بها وهم ميول وعقائد وعواطف تخالف
ماعليه الجمهور فبدأوا بالاسرائيليين حتى أن ميكل لوкас أعظم
سادات قشتالة ذبحه سكان جيان أمام المذبح في الكنيسة سنة
١٤٧٣ لاتهمه بالعطف على الاسرائيليين .

(١) يريد ملوك اسبانيا فان ملك اسبانيا لايزال الى اليوم يدعى في الرسميات
صاحب العظمة الكاثوليكي Sa Majesté, Cataica

وكان من مذابح سنة ١٣٩٠ ان اضطر ألوف من اليهود في معظم مدن قشتالة ان يتنصروا ومنهم من دام على نصرانيته ومنهم من رجع الى دينه الاصل أو كان ظاهره مسيحياً وقلبه وعاداته قلب اسرائيلي وعاده . وكان منهم طبقة غنية محترمة وفي سنة ١٤٨١ وقع تخيرهم بين التنصر والجللاء فأثروا الثاني إلا ان ديوان التفتيش لم تأخذه بهم رحمة كما لم يشفق على المسلمين سنة ١٤٩٢ فشقوا عصا الطاعة بما رأوه من تعصب الكردينال كسيمنس (١) الذي عمد الى تنصيرهم بأبشع الطرق من الحبس والشدة وأخذ الاولاد ولما فرغ صبرهم وعمدوا إلى السلاح نقض ما أعطوه من الشروط يوم تسليمهم غرناطة ولئن فضلوا أن يتنصروا على أن يهجروا بلادهم فانهم لم يسموا أيضاً واشتد ديوان التفتيش في مراقبتهم وكان الاسبانيون يرون في عمل هذا الديوان الديني سلامة عنصرهم وسلامة دينهم ولذلك كانوا شاكرين لعمله مهما قسا وغرم .

وقال ريناخ : لم تكتف اسبانيا بما قامت به من المظالم باسم الدين واحراق البشر وقتلهم وتعذيبهم بل رأت أن توهم الناس انه لا سبيل الى قيام وحدتها الا بنفي اليهود سنة ١٤٩٢ ونفي العرب (١٦٠٩) فسار مئات الالوف منهم يهجرون بلادهم وهلك منهم

(١) هو مرشد ازابيلا الكاثوليكية ملكة قشتالة حكم اسبانيا بعد موت فرديناند الكاثوليكي مات سنة ١٥١٧ وقد كان من أعظم من قضوا على العرب ومدنيتهم على ما مر بك في الفصول السابقة

في الطرق عشرات الالوف خربت اسبانيا من أحسن العاملين فيها
وفقدت تجارها الماهرين وأطبائها الحاذقين وقد قتل في اسبانيا
وحدها بفعل ديوان التفتيش الديني نحو مئة ألف انسان على
الاقل ونفي منها مليون ونصف وبذلك خربت مدينة تلك
البلاد الجميلة .

وقال سيديليو : كان طرد العرب من اسبانيا من موجبات
تأخرها كما وقع لمدينة ناذت يوم طرد منها من كان مخالفاً للكشاكفة
فاضرد ذلك بالصناعة الفرنسية وقد تمكن الكردينال كسيمنس
من تعوير جميع آثار المسلمين وأمر بأحراق ثمانين ألف مخطوط
عربي في ساحات غرناطة .

سقوط الاندلس

٢٠

كان العرب في الاندلس في جهاد دائم مع أعدائهم منذ وطي
طارق بن زياد وموسى بن نصير أرضها ، ورفعوا علم الامويين
على ربوعها ، ودفعوا باعدائهم الى أقصى الشمال . يسكن الجلالقة
وغيرهم حيناً إذا وجدوا العرب مستمسكين بعروة الوحدة ،
ومتى شاهدوا اختلاف أمور العرب أو آنسوا من بعضهم ميلا

اليهم أو نزوعاً الى الاحتماء بهم لينالوا من خصومهم يحملون حملات منكرة ، ويقاتلون أعداءهم بكل ما فيهم من قوة ولذلك قلدت غارات الاسبانيين والبرتغاليين على البلاد التي نزلها العرب على عهد دولة بني أمية أوائل المئة الخامسة وان كان الثوار لم ينقطعوا تماماً في الداخل عن مجاذبة الامويين حبل السلطة .

ثم فسدت عصبية هذه الدولة من العرب واستولى ملوك الطوائف على الاندلس واقتسموا خطتها وتنافسوا بينهم وتوزعوا ممالك الدولة وانتزاع كل واحد منهم على ما كان في ولايته وشمخ بأنفه وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية فتلقبوا بألقاب الملك ولبسوا شارته واستبد كل واحد منهم بجانب من الاندلس ودعى نفسه ملكاً فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمعتضد والمظفر

وأمثالها حتى نعى عليهم ابن شرف عملهم بقوله المأثور مما يزهدي في أرض اندلس اسما معتضد فيها ومعتمد ألقاب مملكة في غير موضعها كالهريحيكى انتفاخاً صورة الاسد أو كما قال ابن حزم : فضيحة لم يقع في الدهر مثلها أربعة رجال

في مسافة ثلاثة أيام في مثلها يسمى كل واحد منهم بأمر المؤمنين ويخطب لهم في زمن واحد أحدهم في اشبيلية والثاني بالجزيرة الخضراء والثالث بمالقة والرابع بسبته وأصبح العرب والبربر في خصام مستديم والجميع في خلاف مع أهل المغرب الاقصى من الجنوب وفي حروب مع بقايا الامم الاسبانية والبرتغالية من الشمال والغرب .

سقطت الاندلس لتشتت أهواء امراءها وأصبح بعضهم
« ولا هم له سوى كأس يشربها وقينة تسمعه ، وهو يقطع
به أيامه » واسترسلوا الى اللذات وركنوا الى الراحة ، وأغفلوا
الاجناد واحتجبوا عن الناس ، ولم يعودوا ينظرون في الملك ،
ومنهم من قتل كبار قواده ، ووسد الامور الى الضعاف فكثرت
المظالم والمغارم ، وكثر الثوار مرات بشرق الاندلس وغربها من
القضاة وغيرهم ، وهكذا تبدد شمل الجماعة « فضبط أشرف
العمالات أزمة أمورهم ، وركبوا ظهور غرورهم ، فاتوا من ذلك
بكل شنيعة »

قال ابن حزم : كانت طرطوش وسرقسطة وافراغة ولاردة
وقلعة أيوب في يد بني هود وبلنسية في يد عبد الملك بن عبد العزيز
والشغراي مافوق طليطلة من جهة الشمال في يد بني رزين وطليلطة
في يد بني ذى النون وقرطبة في أيدي أبناء جهور واشبيلية
في يد بني عباد ومالقة والجزيرة الخضراء في يد بني برزال من
البربر والمرية في يد زهير العامري ثم ابن صمادح ودانية وأعمالها
والجزائر الشرقية (الباليار) في يد مجاهد العامري وبطليوس
ويابرة وشنترين ولشبونة في يد بني الافطس وأصبح كل امرئ
وما اختار من الالقاب والاسماء حتى ان المستعين لما جلس على
عرش الخلافة قال للناس أجمعين : ارتعوا كيف شئتم ، وارتسموا

بما أحببتم من الخطط ، فتسمى بالوزارة في أيامه منفردة ومثناة
(أى الوزير وذو الوزارتين) أراذل الدائرة ، وأخابث النظار ،
فضلا عن زعانف الكتاب والخدمة .

قسمت الاندلس بعد سقوط الأمويين ، الى تسع عشرة
مملكة منها قرطبة واشبيلية وجيان وقرمونة والغرب والجزيرة
الخضراء ومرسية وبلنسية ودانية وطرطوشة ولاردة وسرقسطة
وطليطلة وباجة ولشبونة وغيرها . ولقد كان يخشى بعد هذا التفرق
وتراجع أمر الدولة الأموية ان تسقط الاندلس دفعة واحدة
ولكن قدر الله أن يكون ملوك الجلالقة وقشتالة وغيرهم مشتتة
كلتهم متفرقة أهواؤهم وقبض للبلاد دولة أخرى جديدة قوية
جاءتها من الجنوب أى من المغرب الأقصى وهى دولة المرابطين
فأفرج بها عن العرب بعض الفرج فجاء يوسف بن تاشفين وقاتل
الادفنش سنة ٤٨٠ وانصر عليه وكانت البلاد الى البوار بسبب
استيلاء النصرارى عليها وأخذهم الاتاوة من ملوكها قاطبة .

ثم عادت أحوال الاندلس فاختلفت اختلاالا مفرطاً آخر دولة
أمير المسلمين على بن يوسف أوجب ذلك « تحاذل المرابطين
وتواكلهم ، وميلهم الى الدعة ، وإيثارهم الراحة ، وطاعتهم
النساء ، فهانوا على اهل الجزيرة ، وقلوا فى أعينهم ، واجترأ عليهم
العدو ، فاستولى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم . » . حتى
جاء الموحدون كما كان المرابطون من قبل بدعوة عقلاء الاندلس

وأمرائها وقد كانوا يدعونهم الى نصرتهم بضروب الفصاحة
من الشعر والنثر ويستنفرون الناس من العدو .

لما اشتد الحصار على أهل اشبيلية سنة ٦٤٥ صنع ابراهيم بن
سهل الاسرائيلي قصيدة يستنفر بها الغزاة من العدو ويستنصر
بامراء العرب وذلك اذ كان العدو عليها قال فيها :

يامعشر العرب الذين توارثوا شيم الحمية كابرأ عن كابر
ان الاله قد اشترى ارواحكم بيعوا ويهنئكم وفاء المشتري
أتم أحق بنصر دين نبيكم وبكم تمهد في قديم الالعصر
الى أن قال :

واخليل تضجر في المرابط عرة الاتجوس حريم رهط الاصفر
كم نكروا من معلم ، كم دمروا من معشر ، كم غيروا من مشعر
كم أبطلوا سنن النبي ، وعطلوا من حلية التوحيد صهوة منبر
الى أن قال :

عند الخطوب النكريبدو وفضلكم والنار تخبر عن ذكاء العنبر
لو صور الاسلام شخصاً جاءكم عمداً بنفس الوامق المتحير
ولو انه نادى النصير لخصكم ودعاكم يا أسرتي يا معشري

نعم كانت التفرقة بين أمراء العرب في الاندلس مما علم أعداءهم
كيف يتحدون ليدفعوهم عن أرضهم كما وقع للعرب في صقلية
سنة ٤٣١ فانهم بعد ان دافعوا عنها جيوش البيزنطيين والنورماندين
والروسين والنفاكرييين قسموا صقلية الى أمارات صغرى فانشأوا

جمهورية في بلرم وأخرى في سرقوزة وكان ذلك من أكبر
الدواعي في زوال سلطانهم . لا جرم ان ضعف الوازعين الديني
والمدني من ميل القوم الى الراحة والدعة وضعف الأخلاق
الحريية فيهم وانتشار الفوضى في أحكامهم كان منه ان تأذن الله
بذهاب ريحهم لا كما يدعي بعض المامة من أن رواج سوق الشعر
كان السبب في زوال الاندلس وتبديد شمل أهلها فقد كان الشعر
عندهم من جملة المسليات لان للعرب عامة غراماً به والأدب وسيلة
الى العلوم كافة والعرب أمة أولعت منذ عرف تاريخها بالفصاحة
والبلاغة .

ومن تدبر سير الحروب بين العرب والاسبان والبرتقاليين
في المدة التي ارتفعت فيها أعلام المسلمين على الاندلس يدرك أن
القوتين قوة الغالب والمغلوب كانت متعادلة في أكثر الأيام
ولكن تكتب الغلبة للفريق الذي كان جنده منظمًا أحسن من جند
خصمه وكان بعض خلفاء الاندلس يعتمدون على جنود لهم من
الرقيق كالصقالبة وغيرهم ويعفون رعاياهم من التجند على حين
كان زعماء الاسبان يصرفون أيام شبابهم في تعلم الضرب بالسيف
والرمح لقتال أعدائهم^(١) والعرب لا يجوزون أن يستبدلوا العادات

(١) وصف لسان الدين أمة قشتالة بقوله : وحال هذه الامة غريب في الحماية
الممزوجة بالوفاء والرققة ، والاستهانة بالنفوس في سبيل الحمية ، عادة العرب
الاول واخبارهم في القتال غريبة من الاسترجال ، والزحف على الاقدام ،
وامورهم ، والجثو على الارض ، او الدفن في التراب ، والاستظهار

الحرية باعمال الزراعة وما في المدنية الراقية من التمتع والهناء
فكان الناس في الممالك النصرانية يضطرون الى الخدمة في الجندية
ويرافق الاشراف ملوكهم الى الحرب مع أتباعهم .

أما العرب فلا يخرج أحدهم الا الى الجهاد واذا خرج فيكون
خروجه على الاغلب متكارهاً لمدة معينة فكانت أوضاع الاسبان
حربية محضة تكون لهم بها الغلبة في القتال أما في البحر فكان
العرب أشد بأساً وأقوى أساطيل ولهم في كل فرضة من فرض
الاندلس سفن معدة وقد أقاموا لهم دور صناعة في المرية
وطرطوشة وطرخونة وكانت معامل اشبيلية وقرطاجنة تخرج كل
سنة سفناً جديدة تمخر في عرض البحار .

استولى الملوك من بنى الأحمر قرنين ونصف قرن كما تقدم لنا
الكلام في ذلك وهم الذين استولوا علي بقايا مجد العرب بعد ان
انتصر ساطانهم سنة ٦٦٣ هـ علي الفرنج واسترجع منهم اثنين
وثلاثين بلداً من جملتها اشبيلية ومرسية ثم عاد العدو وأخذ
بمخنقهم ولكن لم ينل منهم لاجتماع كلمتهم في الداخل على الجملة
ولما دب الهرم في جسم دولتهم وقرى الاسبان باتحاد ايزابيلا
ملكة قشتالة وفرديناند ملك الاراغون أي باتحاد المملكتين

في حال المحاربة ببعض الالخان المهيجه ، ورماتهم قسيهم عربية جافية ، وكلهم
دروع ، ولا لجام عندهم ، والتقهر مقدار الشبر ذنب عظيم وعار شنيع ،
ورماتهم بسبقون الخيل في الطراد ، وحلهم في باب التحلي بالجواهر وكثرة آلات
الفضة غريب اه

الرئيسيتين في الشمال تأذن الله بفناء الاندلس فلم يبق أمامهم
الا التسليم والاستسلام وفي ذلك كان هلاكهم وبوارهم .

جبل طارق وطيبة

٢١

كان جبل طارق الذي نسب الى طارق بن زياد فاتح الاندلس
وهو المكان الذي بلغه في جيشه أواخر المئة الاولى بأيدي
العرب مدة استيلائهم على الاندلس فلما دالت دولتهم عاد الى
الاسبان ولبت في حكمهم الى القرن الثامن عشر واستولى الانكليز
عليه في سنة ١٧٠٤ واحتفظوا به رغم محاولة الاسبان في سنة
١٧٠٤—١٧٧٩ بمعاوضة الاسطول الفرنسي للاستيلاء عليه فلم
يستطع الاسطولان الفرنسي والاسباني تخليص هذا الحصن من
أيدي الانكليز .

يعلو جبل طارق عن سطح البحر ٤٢٥ متراً وهو متصل مع
القارة الاوروبية بسهل من الرمل فيه بطائح ويشرف على المدينة .
وقد جعل الانكليز فيه قلعة شحنها بالمدافع فجاءت من أحسن
ما في العالم من الحصون . فهو في الحقيقة قطعة من أرض اسبانيا
ولكنه انكليزي الحكم والنظام يشرف على البحرين المحيط

والمتوسط ويأخذ بمخنق السفن الغادية والرائحة بين القارات
الثلاث أوربا وأميركا وأفريقية .

يبلغ سكان جبل طارق اليوم ٢٢ ألفاً ماعدا الحامية
الانكليزية وأهلها مزيج من شعوب أوربا وأميركا وآسيا وأفريقية
وكذلك ابنتها مزيج من طراز الالبانية عند الامم الكثيرة واللغتان
الشائعتان هنا الاسبانية والانكليزية . ولا يحق اليوم لغير
الانكليزي التبعة ان يقتنى ملكاً في هذا المرفأ الضيق النطاق
ويراقب الاجانب فيه مراقبة شديدة والمدينة كلها عبارة عن
شارع واحد ضيق بني في الغالب منذ قرنين وعلى مقربة من
جزيرة طريف وهي أشبه بقلعة كبيرة مشرفة على البحر .

جئت جبل طارق من غرناطة وانتهيت بالجزيرة الخضراء
آخر عمل اسبانيا والمسافة بين هذه الجزيرة وجبل طارق بضع
دقائق يجتازها المجتاز على ظهر سفينة .

وعلى بضعة أميال من جبل طارق ترى مدينة طنجة قائمة على
البحر في بر العدو من ثغور الغرب الأقصى وأول أرض
أفريقية يقع نظر الخارج من القارة الاوربية عليها فينتقل السائح
انتقالاً فجائياً من مدينة راقية الى مدينة مشعثة منحطة وليس
بين القارتين الاوربية والافريقية الا مجاز صغير كان العرب
يسمونه الزقاق .

اغتنمت فرصة انتظار الباخرة الانكليزية التي تسافر من

جبل طارق الى مارسيليا في يومين فزرت طنجة وظوفت في ارجائها
وسكانها اليوم نحو أربعين ألفاً فيهم كثير من الاسبانيين والبرتغاليين
والطليان والفرنساويين وهي من المدن التي استعمرها الفينيقيون
فيما مضى ولا تزال محتفظة بطرازها الشرقي على كثرة ما تداول
عليها من الأمم بعد الاسلام فقد استولى عليها البرتغاليون سنة
١٤٧١ م والانكليز سنة ١٦٦٢ وحاصرها الفرنسيين سنة ١٨٤٤
وبقيت منذ ذاك الحين في يد المرراكشيين وهي الآن مشاع لكل
الدول أو تحت حمايتهم ويتنازعها الفرنسيين والاسبان كما يتنازعون
على السبق في حماية بلاد الغرب الأقصى . ويقوم فيها كثير من
معتمدى الدول والسلاطين الخلوعيين من أمراء المسلمين في الغرب
الأقصى أمثال مولاي عبد العزيز ومولاي الحفيظ .

نعم ان المرراكشيين مازالوا في هذا الثغر وما وراءه من
البلدان على تصليبهم في طاداتهم رغم التيار الشديد الهاجم عليهم
من أوربا وهم منها على ثلاث ساعات بحراً لا يفصلهم عنها الا بحر
الزقاق وبين طنجة والجزيرة الخضراء اثنا عشر ميلاً « وهو أضيق
موضع فيه وأوسع موضع فيه نحو ثمانية عشر ميلاً » قال الفقيه
المرادى المتكلم القيرواني بعد خلاصه من بحر الزقاق ووصوله الى
مدينة سبتة :

سمعت التجار وقد حدثوا	بشدة أهوال بحر الزقاق
ققلت لهم قربوني اليه	انشفه من حريوم الفراق
فلما فعلت جرت ادمعي	فعاد كما كان قبل التلاق

علم المشرقيات في اسبانيا

٢٢

كان على اسبانيا وتاريخها مرتبط بتاريخ العرب ثمانية قرون ان تكون اول دولة غربية تعنى باللغة العربية ولكنها تعد من الاواخر لان الارتقاء يتبع بعضه بعضاً ولا تنفك الاما عندها ومع هذا حدثنا التاريخ ان اول مدرسة (١) عربية أنشئت في طليطلة اوائل القرن الحادي عشر ومن هذه المدرسة نشأت تربية الاسبانيين على مناحي العرب وفي سنة ١١٣٠ أنشأ ارييس اساقفة طليطلة مدرسة للتراجمة في هذه المدينة وبها رسخت اللغة العربية والافكار العربية في اسبانيا المسيحية . وكان من نتائج وقعة العقاب ان حررت اسبانيا من رق العبودية للمسلمين وأدرك ملوك قشتالة ان ليس من العقل مقاطعة الماضي القديم وانهم في حاجة بعد الى أن يتعلموا من معلمهم القدماء ومنافسهم الالاء من العرب فحاول الفونس العاشر أن يعمل لاسبانيا المسيحية ما عمله العرب لاعلاء شأن الاسلام وذلك بالاخت باحسن ما في الحضارتين ومزجهما بالحضارة الاسبانية فأست سنة ١٢٥٤ في اشبيلية مدرسة عامة لاتينية عربية وحفظ لمدينة مرسية رونقها

(١) مجلة المقتبس المجلد الرابع .

العربي الصرف واستدعى الى عاصمته العلماء من جميع الملل والنحل ليؤسس مدرسة طليطلة الثانية وقوامها اختيار احسن المعارف النافعة وهي أقرب الى التسامح من المدرسة الاولى اذ كانت تجمع الى التقاليد اللاتينية الحضارة العربية والعلم العبراني.

كان لليهود يد طويلة في نقل العلوم من العربية الى اللاتينية لأن المرابطين والموحدين الذين استولوا على الاندلس بعد الامويين كانوا الى التعصب . بددوا كتب الفلسفة وأحرقوها ليرضوا بذلك العامة والفقهاء ولولا تراجم الاسرائيليين لضاع كثير من أوضاع مدينة العرب في الاندلس .

ثم بدا لرجال الدين من الاسبان ان يسعوا في نشر دينهم بين المسلمين فاخذوا يعنون باللغة العربية ليتعلمها الرهبان ويجادلوا مخالفيهم بالبرهان فوضع أحد الدومنيكيين أول معجم عربي باللغة الاسبانية سنة ١٢٣٠ وفي سنة ١٣١١ — ١٢ امتدح البابا اكلنص الخامس في أحد المجامع الدينية من انشاء درس لتعليم العربية في مدرسة صامنكة وفي أواسط القرن الثالث عشر كان الدومنيكيون مثال الغيرة في نشر اللغات الشرقية بين أبناء رهبنتهم ومنها العربية وأنشأ صاحب أراغون مدرسة لتعليم اللغات الشرقية في ميرامار وأنشأ المجمع الديني في طليطلة ينفق على طغمة من الرهبان مؤلفة من ثمانية أشخاص انقطعوا لدراسة العربية وعلى هذا ظلت الجمعيات الدينية ولا سيما الفرنسيسكانية الى القرن

الثامن عشر في اسبانيا هي القائمة بدعوة المستشرقين الى درس آداب الشرق ولغاته وتاريخه .

ولم تنل مدرسة صلمنكة شهرة طائلة في أوربا حتى غدت احدى المراكز العلمية الأربعة وهي باريز واكسفورد وبولون الا أنها بتأثير العلم العربي أقامت على أساس معقول تعليم العلوم الطبيعية والطب ولم يكن في مدرسة صلمنكة في أواخر القرن الثالث عشر غير خمس وعشرين حلقة للتدريس منها حلقة لليونانية وأخرى للبرانية وثالثة للعربية فأصبحت في القرن السادس عشر سبعين حلقة فيها سبعة آلاف طالب .

ولما أعلن الاسبانيون الحرب على جنسية العرب ومدنيتهم ودينهم ضعفت العناية باللغة العربية ولم يكتف القوم باستصفاء جميع الجوامع وجعلها كنائس بل أخذوا ينصرون المسلمين بالاكراه وفي سنة ١٥٠١ — ٢ طردوا من مملكتي قشتالة وغرناطة كل من ظلوا محافظين على الاسلام ولم يعد للدومنيكيين والفرنسيسكانيين من حاجة لتعلم العربية ليتمكنوا من مجادلة الفقهاء وتخلوا عن علومهم لأنها افسدت أفكارهم وزهد المسيحيون في علوم المسلمين وقام في أذهانهم انها خطر عليهم .

صدر أمر الكردينال كسيمنس سنة ١٥١١ بعد ان أحرق في ساحات غرناطة كمية من الكتب العربية ان تباد كتب العرب من بلاد اسبانيا عامة فتم ذلك في نصف قرن ولولا المترجمات منها

الى العبرية واللاتينية لبادت مدينة العرب من تلك البلاد . وأخذ
ديوان التفتيش الدينى على نفسه ابادة كل أثر للعرب وما كان
متنصرة المغاربة الذين دانوا بالنصرانية مكرهين ليستطيعوا ابداء
أسفهم الا سراً وفي الكتب العربية المكتوبة بالعجمية أى
المكتوبة بحروف اسبانية دليل على تعلق أولئك المتنصرة بقديمتهم .
وفي سنة ١٥٥٦ منع فيليب الثاني متنصرة المسلمين من استعمال
اللغة العربية وأرادهم على أن تنزع من أسمائهم التراكيب العربية
وعن أجسامهم الالبسة الشرقية ليمزجهم بزعمه فى سواد أبناء
المذهب الكاثوليكي ثم طردوا على عهد فيليب الثالث وكان
عددهم نحو مليون نسمة على صورة قاسية سخيفة ولم يبق من
الحضارة العربية واللغة العربية فى اسبانيا غير ذكراها وزهد القوم
فى القرنين السابع عشر والثامن عشر فى تعليم العربية فى اسبانيا
اللهم الا على طريقة افرادية وغدا الاطلاع على العربية نقصاً ولربما
اتهم من يتعلمها بالاحاد بعد ان كان أهل الطبقة العليا من الاسبان
أيام عز العرب يحلون باقوال فلاسفة العرب كلامهم ويدرسون
الفلسفة العربية درس مستبصر مستفيد لا درس نافذ عميد ويعدون
الاطلاع على الآداب العربية من أمارات الظرف والكياسة .
وعلى هذا لم يبق لمدرسة الفرنسيسكان فى أشبيلية من أساليب
تعليم العربية الا أثر ضئيل وأراد شارل الثالث أن يعيد الى اسبانيا
عهد الآداب العربية فاستدعى لذلك رهباناً موارنة من سورية

ليعلموا الاسبانيين لغتهم الاصلية الثانية ويحق للنصف الثاني من القرن الثامن عشر ان يباهى باساتذة متمكنين من أسرار العربية في اسبانيا .

ولما ادخل الاصلاح الى الكليات القديمة في أواخر النصف الاول من القرن التاسع عشر عادت العربية تدرس في جامعات اسبانيا رسمياً ولما استلمت الحكومة الاسبانية سنة ١٨٥٧ زمام اصلاح التعليم من دون رجال الدين او الملك أو الاشراف رجت اللغة العربية حتى كادت تعود اليها حياتها التي كانت لها في شبه جزيرة اسبانيا من القرن الثاني عشر الى القرن الخامس عشر فاخذت معرفة اللغات والآداب العبرية والعربية تدخل من تلقاء نفسها في قائمة دروس التعليم العالي وأخذ المستعربون ينتفعون من المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة الاسكوريال ومكتبة الامة ومكتبة المجمع العلمي التاريخي ومن المخطوطات العربية المكتوبة بحروف عبرية المحفوظة في كاتدرائية طليطلة . دع مكتبة خزائن كايانكوس وكودرا وريبرا وآسين وغيرهم من رجال المشرقيات .

والعربية اليوم تدرس رسمياً في كلية مجريط وغرناطة وبرشلونة وصامانكة وبلنسية وأشبيلية وغيرها واكن التدريس فيها مهمل والمدرسون غير كفاة الا في العاصمة وبعض الولايات وقد نشر المستشرقون من الاسبان منذ أواخر القرن التاسع عشر كتباً عربية

كثيرة متعلقة بتاريخ الاندلس وتراجم رجاله وبعض العلوم التي
اشتغلوا بها ومنها الجيد وأكثره مملوء بالاغلاط والتحريف وهو
دون ما نشره الهولنديون والجرمانيون والبريطانيون والاطليان
من هذا القبيل من حيث الصحة والاتقان .

وأنت ترى ان الاستشراق العربي كان الدين هو الداعي اليه
كما كان في معظم بلاد أوربا ثم امتزج الدين بحب المدنية ثم امتزج
كلاهما باسم الاستعمار ولكن المحصول في شبه جزيرة ايبيريا
في اسبانيا والبرتغال قليل . وفي جامعة لشبونة عاصمة البرتغال
درس عربي اليوم ومدرسة الاستاذ لويس الذي نشر بعض
الكتب العربية فهو المرجع في البرتغال اليوم كما أن الاستاذ
آسين مرجع الاسبان في مجريط وكلاهما عضو في المجمع العلمي العربي .

اسبانيا بعد العرب

٢٢

من القى نظرة بليغة على تاريخ شبه جزيرة اسبانيا يوقن ان
الانحطاط دب في اهلها منذ قرون وان تراجع امرها يرجع لتعليه
الى امور كثيرة افاض فيها الاجتماعيون والمؤرخون والحكماء ،
وانحطاط الاسبان كيف كانت الحال مؤكدا لا يختلفون هم فيه ومنهم

من يقول ان منشأه حر وبهم مع العرب وفتح امريكا فنفتت
قوة الامة في اعمال هي الجنون بعينه . ويقول - القشتاليون
ان جلوس ملك غريب على عرش اسبانيا انتج سلسلة من المصائب
مازالت حتى اليوم تجرع صاب عذابها . ويزعم بعض مؤرخيهم
ان الاصل في انحطاطهم كون البلاد قاحلة والطبيعة لم تساعدها
على النمو . ويدعي آخرون ان السبب في بقاء اسبانيا منحطة ميل
الشعب الى المقاومة والمشاكسة وغرامه في الاستقلال بحيث انقلب
ذلك الى فوضى وغدت بلادهم مسرحا للفتن الاهلية وشغلت برد
غارات المغيرين عليها ويدعي فريق آخر ان هذه الاخلاق
في الاسبانيين وتحمسهم في رد غارات العدو وتغني اهل كل صقع
بمزاياهم وركونهم الى العزلة والاستئثار - كل ذلك من امارات
الوطنية فيهم وان كانوا في الاكثر اذا شكوا عضو من أعضاء البلاد
او قطر من اقطارها لا يشاركه في شكواه جاره ولا اخوه . وعماد
الوطنية عندهم هو الدين الكاثوليكي يسرون بسيره ويندفعون
بعوامله . ولا شأن في اعمالهم للآراء التي تملئها المصلحة وتنبعث
من عظمة الامة . وينسب بعض الكتاب الذين كتبوا عن
اسبانيا عقب انحلال مملكتها الاستعمارية السر في انحطاط امتهم
الى تشبعها بدين مملوء بالخرافات ممزوج بالتصرف ويجب آخرون ان
ضعف الوازع الديني في قومهم هو الذي كان به مبدأ انحطاطهم وما قام
مجدالا منه قديما الا بسائق الدين فلما قل المعتقدون كثير المنحطون -

ويقول فوليه : ان اسبانيا مؤلفة من عدة ممالك وفيها الاهوية
المختلفة فالشمال منها اوربي والجنوب اشبه بقطر افريقي - فيه
الليمون والبورتقال والتمر والرطب وانها في بعض اصقاعها تشبه
روسيا حرها مدة ثلاثة اشهر من السنة كحر جهنم وشتاؤها تسعة
اشهر وقد فطر الاسباني على شيء من القسوة تشبه لفحات جباله
وفيه جفاء كطبيعة تربته ومحرق شمسه وانه ظل افريقياً وان كان
يعد في الاوربيين

ومزاج الاسباني صفراوى عصبى ومعنى ذلك ان في باطنه
حرارة شديدة تحرقه فيعرف كيف يجمع هواه المذيب وان
في استطاعته ان ينام على احقاده طويلا حتى اذا عرضت له الفرصة
وثب ، وهم قساة على الحيوانات الاهلية قساة على الانسان قساة
على انفسهم . وقد جاءتهم القسوة من اعتيادهم النظر الى الانسان
يحرق بالنار ايام ديوان التفتيش الدينى وما زالت القسوة متسلسلة
في دمهم يساعدها ايضا اعتياد الاسبان صراع الثيران واذا ادعى
بعضهم ان صراع الثيران يورث النشاط - ومتى كانت قسوة
القلب تورث نشاطا - فان هذا الصراع هو التوحش بعينه وليس
من الضروري اهراق الدماء حتى ينشأ ابطال

الاسبانيون صادقون مخلصون اذا أعطوا عهدا وعندهم
شعور بالاحترام والشرف وهم كرام يحبون اقراء الضيفان وربما
زاد هذا الخلق فيهم في الجنوب اكثر من الشمال ولكن لا يجرم
بانهم يميلون كثيرا الى الانسانية

اماتعصبتهم فيه يضرب المثل وكان منه فساد أمرهم . قالوا ان
التعصب بالنسبة للدين بمثابة الغيرة بالنسبة للحب واذ كان
الاسباني غيوراً جداً في حبه فهو متعصب جداً لدينه ومع هذا
فقد رأينا الايطالي غيوراً في حبه ولكنه غير متعصب في الدين .
قال فوليه ان أغناس دى لويولا (مؤسس الرهبنة اليسوعية)
على ما كان فيه من المضاء والفتوة قد ساعد بدون أرادته على
أضعاف بلاده لأن فساد آداب جماعته من الاسبان ومراقبتهم
كل ضرب من ضروب الحرية كانا من الاسباب التي قضت
على النفوس بالانحطاط . قال ولم ينشأ في اسبانيا فلاسفة لأنه
لا يتأتى تحت سلطة ديوان التفتيش أن يتفلسف المرء بل يكون
نصفه لاهوتيا والنصف الآخر فيلسوفاً والى اليوم لا يزال
الحال كذلك ليس للفلسفة من يمثلها في اسبانيا في الحقيقة وتقس
الامر

لا جرم أن الاسباني شأن كل أمة انحطت يحتاج الى دراسة
تاريخه دراسة تدبر وهو اليوم متأخر جداً في مضمار العلوم -
والتربية . وقد غرس في العنصر الاسباني الصبر والثبات وحب
الأقدام . ودعا اختلاف طبيعته الى تحالف السكان في المناحي
والمنازع وكان كل جزء من البلاد قبل انشاء الخطوط الحديدية
والطرق المعبدة منعزلاً بذاته ضمن حدوده فاضطرت الشركات

الى فتح زهاء مئة تفق طويل في انحاء البلاد حتى يتيسر ربط
الأجزاء المهمة بعضها ببعض وكذلك الحال في صعوبة المواصلات
البحرية فان فرضها وسواحلها على كثرتها وطولها صعوبة المجاز على
السنن . ومع هذا رأينا أمماً كثيرة غزت شبه جزيرة ايبيريا مثل
الايبريين (الذين سميت الجزيرة باسمهم) والسلميين والفينقيين
واليونانيين والقرطاجنيين والرومانيين والسوافيين والفاندانليين
والوزيغوطيين والعرب والاسرائيليين والسوريين والبربر
والمرابطين والموحدين

ولم تترج تلك الشعوب التي دخلت اسبانيا على توالى القرون
في بودقة واحدة وكان السكان على الدوام متخالفين في طبائعهم
تخالفهم في بيئاتهم بل لم تتم وحدتهم على ما هنالك من صلات
ضعيفة سياسية لان أفراد الامة لم يتعاونوا كلهم على تأليف
هذه الوحدة . فاننا نرى البغضاء قد تأصلت في قلوب الاسبانيين
فليس التنافر على أتمه بين ابن الشمال وابن الجنوب فقط بل بين
أهل المدن المتجاورة شأن الأمم المنحطة . كان الاسبانيون وما
زالوا وابن قشتالة منهم ينفرون من ابن الاندلس ويحتقرونه وأهل
برشلونة يبغضون أهل بلنسية وأهل طرخونة يكرهون أهل رية
وأهل مرسية لا يميلون - الى القرطاجنيين وأهل قادس يمتنون أهل
شريس وهكذا يستعدى أهل كل مدينة أهل المدينة الأخرى
ولولم يقيم منهم ملوك عقلاء يضمون بالقوة شمالهم ويدفعون العرب

عن بلادهم لما قامت لهم قائمة وقيل لولم ينضو أمراء النصرانية
في تلك الحقبة - من الزمن تحت لواء واحد لكان الخطر على
النصرانية نفسها وكان الواجب أنه لا يتأخر اتحاد الاسبانيين حتى
يقوم الملوك المتأخرون بلم شعثهم لولم يكن أمراؤهم مختلفين
بينهم وكذلك كان يصعب حزحة العرب عن سلطانهم لولم يكونوا
على اختلاف بينهم أيضاً.

ولقد كان أهل قشتالة يرون لسلامة اسبانيا - وهم الذين
قاموا بأعمال مهمة في جمع سلطان الاسبان وطرودوا العرب من
الاندلس أن يقطعوا شأفة المخالفين لهم في الدين من العرب النازلين
في اسبانيا ولولم تفتح أميركا وتشتغل اسبانيا في حرب فرنسا
وانكلترا وتبدد قوتها في الممالك التي ضمت اليها من طريق
الارث لثم لها ما تريد من فتح مراکش .

لم تستفد اسبانيا من فتوحها لأن ملوكها كانوا يدبرون
أمرها على هواهم ويربطون أهلها برباط الدين ولكن هذه الوصلة
لم تقو على نزع الفوارق في طبائعهم وعلى كثرة تحمس الفرد للوطنية
لا تتعدى حماسته اسوار بلده خلافا للفرنسيس والانكليز
والالمان والاطليان وغيرهم من الامم الكبرى فانها نهضت متحمسة
حماسة ناشئة من نصر أحرزته وغلبة تمت لها على حين ترى اسبانيا
لم تحرز مثل هذه النتيجة من انتصاراتها في بلادها وفي الخارج

وأن فقد الشعور الوطني هو أهم عامل في انحطاط اسبانيا تضاف
اليه أسباب سياسية واقتصادية .

* * *

لا مرء في أن النسبة مفقودة بين المشاريع التي قام بها ملوك
اسبانيا وبين موارد البلاد الحقيقية من حيث الاقتصاد والجندية .
ومن الجنون أن يعتقد أن التوسع في الفتوح في الخارج ينمي
قوى المملكة . ومن أشنع الجنون أن يعتقد ملوكهم أن مناجم
الذهب في العالم الجديد أميركا لا تنضب أبداً وأن الذهب المجلوب
من أميركا يغني الأمة على وجه الدهر . قال فوليه : وكان
في افتتاح الاسبان أميركا باعثاً على تقلقل النفوس وتزعزع المبادئ
فأصبح الناس يرقبون الفرص للاغتناء ونسوا أن الثروة بالعمل
والاستمرار ولذلك قل فيهم المتشردون اذ رأوا كثيرين منهم
اغتنوا بالمصادفات وآخرين افتقروا كذلك . وهكذا ماتت الارادة
في هذا الشعب . وما تاريخ استعمار اسبانيا الامثال وأى مثال
لشعب ينتحر .

ثم ان ديوان التفتيش قرض بيوتاً وأسراً كانت مباءة ذكاء
وجرائم فهم وعلم فبقضائه عليها قضى على الصناعات والفنون
والآداب . وكانت اسبانيا تستعمل في دعايتها للدين « النار
والحديد » قسطوا على الوجدانات المتحمسة وتقضى على الارادات
القوية ثم تستكثر من الرهبنات فتكثر من العزب فيزيد العقم

ويقل النسل ثم ان حروب شارل كان الجنونية ولا سيما فتح أميركا حرم البلاد أهل النشاط والاقدام وأضعف طبقة الاشراف بل قرض العالم من القرى فاقفرت وأغلقت بيوت برمتها وان طرد اليهود من اسبانيا سنة ١٤٩٢ وجميع سكانها الذين كانوا من أصل عربي بين سنة ١٦٠٩ - ١٦١٠ قد حرمها شعباً عرف بهمته ومضائه فحلت محل العاملين حثالة من الناس كانت أقرب الى الكسل المغروس في سكان الجنوب المعروفة باحتقار الاعمال اليدوية وكثر التسول وحظر رجال الدين الاستحمام لأنه يشبه الوضوء عند المسلمين بزعمهم فكثرت الأمراض الجلدية وتعذر على الأطباء أن يصفوا لمرضاهم النظافة والاعتسال مخافة أن ينفسو أمرهم ويقعوا تحت طائلة القصاص.

والظاهر أن الاسبانيين لم يكن لهم في دور من الادوار ذوق في الاشغال اليدوية وكانت بلادهم قليلة السكان قبل زوح العرب منها فما بالك بها بعدهم ومدنها قليلة وكذلك العامر من قراها فهي من هذه الوجهة لا تشبه فرنسا ولا ايطاليا بحال من الأحوال. وبعد فاذا كانت الصناعة والتجارة قد بلغت درجة حسنة في بعض العصور والامصار في اسبانيا فذلك بفضل العرب والغرباء عن البلاد. وما زالت معامل اشبيلية وبرشلونة مشهورة بنسيج صوفها وقطنها وحريرها وأسلحة طليطلة وجلود قرطبة معروفة منذ عهد العرب هناك. فللغريب الى اليوم اليد الطولى

على اسبانيا ومعظم المشاريع العمرانية فيها لجماعة من الانكليز والفرنسيين والالمان وغيرهم .

اذا اشتهر عن الاسباني أنه من نسل أمة حربية فلم يعرف عنه أنه من أمة جنديّة . وشتان بين من يحارب منفرداً لحساب نفسه وفائدتها وبين من يقاتل صفوفاً صفوفاً بانتظام لنفع وطنه وخدمة غرض شريف ترمى اليه أمته فقد كانت عدة المحاربين تحت العلم الاسباني من غير الاسبان في حروب ايطاليا والفلاندر تسعة أضعاف المحاربين من أهل العنصر الاسباني وهكذا في كثير من حروبهم في جنوب أميركا وفي جزائر البحر .

كان رائد حروب الفتوح الثاني La Reconquista الفكرة الديني في الامة وموردها امراة الالهة وبركات البابا الرسولية وتنشيط الاشراف فلما اراد الاسبانيون ان يعملوا خارج تخومهم خانتهم القوى وأعوزهم المال والرجال ولقد ذكر العارفون بان ما ساعد على انحطاط اسبانيا اكثر من فقر تربتها وبار اراضيها وشقاء سكانها واوهام حكامها وفتح امريكا وطرد العرب واليهود منها فحرمت بطردهم موارد كثيرة من الرجال والعقول الذكية المفكرة - ان ما ساعد على انحطاطها في الاكثر كان اعتزالها الديني الذي فصلها عن بقية العالم واهم ذلك رسوخ اقدام قوميات في ارضها ولم يشعر الاسبان في زمان من أزمنة تاريخهم بانهم متضامنون ولذلك كانت الامة تدفع المال لرجال تستأجرهم جنودا حتى اذا ظفروا

في القاصية تقيم الاعياد والحفلات تكريما لهم وادهش من ذلك ما قال احد المؤرخين : بين اكثر أمم اوربا عقيب النهضة تحاول ان تكسر قيود الرق الديني كانت اسبانيا تقاوم كل فكر اصلاحي يرمى الى التجدد وتقاتل في ارضها وخارج ارضها كل ما يراد منه تحرير العقول من الاستعباد فكانت اسبانيا تساعد الباباوية الايمن في الضرب على ايدي المجددين والمصلحين الذين كانت تنبعث انوار عقولهم في الغرب بسرعة البرق

وكان من جهاد اسبانيا ان فقدت جميع املاكها ومستعمراتها الخارجية عن حدودها الطبيعية وان خرجت عنها البرتقال وكادت بلاد الكستلانكيين ان تودي معها واقتطعت انكلترا من ارضها جبل طارق وجاءت عليها ادوار قويت فيها الضغائن واشتد فيها الفقر وكثرت الضرائب ولا يستثنى من هذه الا رجال الدين وطبقة الاشراف حتى كادت اسبانيا ان تقسم اجزاء كما قسمت بولونيا قديما

وكما قام المصلحون فيها اذوا وقتلوا حتى كان احد ملوكهم يقول ان الاسبانين كالاولاد يبكون كلما حممتهم وغسلتهم . وما زالت البلاد على الرغم من حكمها الدستوري في نزاع بين القديم والحديث ولا سلطان فيها الا لرجال الدين والجيش وبعبارة ثانية لرجال الدين وحاشية الملك الذين يخدمون على الاغلب مصالحهم الشخصية . اما النواب فيوشكون ان يكونوا اسما بلا

مسمى وليس هناك رأى عام ولا جماعة من المنتخبين والنواب
قد ينتخبهم الوزراء ويقرهم الناس وتكاد اسبانيا لا تشبه بدارتها
الحكومات النيابية الا قليلا وذلك لان كبار الموظفين الذين
يختارون اعضاء لمجلس الشيوخ - كالقواد والحكام ورؤساء
الاساقفة قد اعتادوا ان لا ينظروا المسائل التي يبحثون فيها الا
من حيث مصالح طبقاتهم الخاصة وهكذا بقية طبقات الاشراف
والمنتخبين من الولايات لايجرون الا على هذا المثال . اما القضاء
فيكاد يكون هزواً والدعاوى تكلف نفقات باهظة أكثر من كل
ممالك أوروبا والذي يوكل اليه جلب الجناة قد يفسح لهم في الاكثر
مجال الهرب مقابل مال قليل لأن الدرك يتقاضى راتباً ضئيلاً
فهو شريك المجرمين والجناة والمتهمين والبلاد أبداً غاصة بجمهور
منهم وقد قال أحدهم : ان اسبانيا لا يحق لها أن تحسد مراکش
على قضائها لان القضاء في الأولى هو كالقضاء في مراکش الى
الانحطاط والسقوط . وسوء الاستعمال محسوس الأثر في كل
عمل من أعمال الحكومة هناك .

لا يقل عمل العمال في دواير الحكومات الاوربية كما يقل
في حكومة اسبانيا فان من موظفيها من لا يعمل أكثر من ساعتين
ومنهم من يأتون خلسة الى دوائرهم ثم يذهبون حالاً دون أن
يأتوا بعمل . ومتى فوضت الوزارة الى أحدهم وزارته لا تطول
أكثر من أشهر - لا يفكر في عمل مفيد بل يحرص على تعيين

أقاربه والمخلصين له في المناصب . ومن أقبح قواعد الادارة في اسبانيا
تأسيس اللامركزية الشديدة فترى الولايات لا تستطيع أن تعين
شرطياً ولا حارساً بل أن حق التعيين من شأن العاصمة مجرط
ولا بسط المسائل ملفتة من الاوراق طويلة عريضة لا ينظر فيها
أشهرأ وصاحبها يذوب كمدأ على نجاز عمله . واذا خلت وظيفة
التدريس في احدى مدارس الولايات لا يعين الخلف قبل مضي
شهرين أو ثلاثة فتغلق المدرسة خلال هذه المدة ويتشرد الأ ولاد .
وليس للاعمال الصحية أثر في غير المدن أما القرى والدساكر
فانها محرومة من كل نظام صحي . وتخف التبعة الملقاة على عاتق
الموظفين بنسبة أعمالهم ولا ترى في الحقيقة أحداً يسأل عن عمله
والشعب لا يهتم الا لارضاء سادته ورؤسائه وقلما يثور للمطالبة
بحق له الا اذا فقد الخبز أي بسائق الجوع ولا يثور دفاعاً عن
أفكاره وأمانيه الوطنية . الشعب الاسباني ملكي يتقانى في الحكم
الملكي كما هو مغموس في الدين وكان لرجال الكنيسة عندهم
في كل دور شأن وأي شأن . وجميع الحروب المدنية التي نشبت
في اسبانيا لم توقد جذوتها الا باسم الدين فاذا بدأنا بحرب
الاسبان مع العرب لانقاذ اسبانيا من حكم هؤلاء نجد العامل
الاكبر فيها - اختلاف الاديان . وهكذا مقابلة الاسبان للاصلاح
الديني وحرب الاستقلال وكانوا يحاربون فيها الفرنسيين لالحادهم
أكثر من حربهم لهم لانهم أعداؤهم الذين قهروهم وغلبوهم

على أمرهم ولولا حماية الاسطول الانكليزي ما وجدت البرتغالية لها منفذا في بعض مدن الساحل من اسبانيا
لئن كانت المرأة في اسبانيا لاشأن لها في الشؤون العامة وتعد ذات مقام منحط بخلاف ممالك اوروبا الراقية فلها شأن في بعض المسائل التي يهتم لها رجال الدين فيسوقونها الى التدخل فيما ليس من خصائصهن توصلا الى مقاصد لهم . ومقاصد الرهبان هنا كثيرة لأن الرهبنات تملك نحو ثلث أراضي المملكة ولها عقارات وشركات منها ما تستثمره علناً ومنها ما تستثمره بالواسطة . وسلطة الرهبان و ثروتهم تزيد مع الايام قوة واستحكاماً . وفي اسبانيا زهاء سبعين ألف راهب يتقاضون من ميزانية الحكومة أربعين مليون بستاس أي ثمانين مليون فرنك في السنة علاوة على ما لهم من ريع أملاكهم ولقد سألت أحد الاسبانيين ذات يوم عن الصناعات الرائجة في بلادهم فأجابني بين الهزل والجد : عندنا ياسيدي ثلاث صناعات رائجة وهي صناعة الرهبان وصناعة النسوان وصناعة الثيران (١)

(١) كان صراع الثيران الى القرن السادس عشر خاصاً بالفرسان يعمدون اليه للتمرين الحربي أو للاحتفال باعياد وكان فيه خطر على حياة المتصارعين اذ يقضى على الفارس أن ينجر الثور برمح وفي أوائل القرن الثامن عشر أصبح صراع الثيران أقل خطراً وجعلته الحكومة للفرجة وانشأت له معاهد وهي تربو على مائتي معهد في اسبانيا لها أوقات معلومة في السنة ويفتخر من كان ثوره عاصياً على الصراع والنزال اذ يدل على مبلغ عنايته وتربيته أما اذا صرعه فحدث عن تفاخره ولا حرج . وقد أقامت الحكومة ميادين لصراع الثيران تتسع

كانت اسبانيا في اوائل القرن الماضى امة زراعية يحكمها
الرهبان والقضاة فاستحالت من سنة ١٨٠٣ الى ١٨١٥ امة حربية
وكان للجيش المقام الاول في كل عمل حتى صار ينفق ستون في المئة
من ميزانية الدولة على الجيش . واتي عليها زمن في اواخر حرب
كوبا وعندها ٤٩٩ قائدا و ٥٧٨ زعيما وزهاء ٢٣ الف ضابط اى
نحو خمسة او ستة اضعاف ما يلزمها لجيشها المنظم . فاصبحت القوتان
العظيمتان الرهبنيات والجيش تستنزفان قوة البلاد المادية والمعنوية
يضاف الى ذلك سوء ادارة الحكومة هناك ففقد التناسب
في اجزاء البلاد واختل تقويمها وقلت رغبة السكان في العمل
ومنهم من يعدونه شائنا فيدعون الشرف ولا يسعون لادنى عمل
ولذلك تركوا في الماضى الاعمال المهمة للمسلمين والعبيد ثم اخذ فكر
الاغتناء يسود بسرعة بين القوم حتى اصبح افراد منهم يهيمون
على وجوههم في الارض ليغتنوا في برهة قليلة ونشأت من ذلك
مخاطر ومهالك ولم يعن العناية التامة باستحصال خيرات البلاد
والانتفاع بزراعتها ومعادنها الانتفاع المطلوب .

ولك بعد هذا ان تتصوركم عدد المتسولين - عدددهم مئة

لالوف من المتفرجين وذلك في أمهات مديان فيديان بلنسية يسع ستة عشر ألفا
وميدان أشبيلية اثني عشر ألفا وميدان عرناطه سبعة عشر ألفا وهكذا أحدثت
اسبانيا ساحات لهذه الفرج في مالقة وسرقسطة وصلمنكة وقادس ومجريط والجزيرة
وبرشلونة وغيرها أقل ما يسع منها تسعة آلاف نسمة ومن ذلك تحكّم على
مبلغ صباية القوم بصراع الثيران ومكائنه من نفوسهم .

الف - والمتشردين والطفيليين من كل صنف من الاصناف -
لا جرم أن عددهم لم يبلغ في مملكة ما بلغه في اسبانيا . وكان من
نتائج طرد العرب واليهود من اسبانيا ان انتقلت صناعات هؤلاء
وأعمالهم الى الغرباء من غير الاسبانيين ولا تزال الى اليوم . حتى
ان بعض الصنائع كالحرير والجلد والصوف والحبال قد بارت
بخروج العرب من الاندلس ولا تزال معامل غرناطة واشبيلية
وطليطلة وغيرها آخذة في الانحطاط سنة عن سنة .

ومن أسوأ الأعمال في اسبانيا جباية الخراج وتوزيعه وفساد
الطرق في انفاقه فلو استعاضت اسبانيا عن الانفاق على الجيش
وعلى عشرات الالوف من الرهبان وعلى جمهور عظيم من الموظفين
الذين لا يعملون عملاً بفتح مدارس وتعبيد طرق وفتح أقبية
وغرس أشجار لكان حقيقاً في ذلك نجاحها الاقتصادي على
ما أثبت ذلك المفكرون .

وبينا نجد في فرنسا عشرين مليوناً ونصف مليون من سكانها
البالغين زهاء أحد وأربعين مليوناً يعملون في الزراعة نجد خمسة
ملايين من الاسبان فقط أى ربع سكانها يعملون في الزراعة .
والزراعة مورد حياة البلاد الوحيد . ونجد في اسبانيا ٤٨،٨
في المئة من أرضها بوراً على حين لا ترى في بريطانيا العظمى سوى
٢٨،٤ من أرضها لا يستفاد منه و٢٣ من أرض هولاندة
و١٩،٣ في ايطاليا و١٠،٢ في المجر و٩،٩ في ألمانيا و٩،٤ في البلجيك

و ٦،٩ في النمسا و ٩ في فرنسا أما الاثنان والخمسون في المئة من
أرض اسبانيا فانها لا تزرع الا زراعة ناقصة بحيث أن الكيلومتر
المربع لا يقوم باطعام أكثر من أربعين شخصاً وهذا ولا شك
منبعث من أنانية الأغنياء وجهل الفقراء

في اسبانيا ١٥ ألف كيلو متر من الخطوط الحديدية و ٥٥ ألف
كيلو متر من الطرق المعبدة في حين ترى في فرنسا ومساحة
المملكيتين واحدة تقريباً ٦٩٨ ألف كيلو متر من الطرق المعبدة
و ٥١،٤٣١ كيلو متراً من الخطوط الحديدية وليس في اسبانيا
سوى ٢٩٨ كيلو متراً من الخطوط الحديدية في كل عشرة آلاف
كيلو متر على أنك تجد في مثل هذه المساحة في ايطاليا ٥٨٠
كيلومتراً وفي النمسا ٧٦٢ وفي فرنسا ٨٧٤ وفي ألمانيا ١٠٠٧
وفي بريطانيا ١١٨٠ وفي البلجيك ١٦٢٣ ولذلك يضطر المسافر
في اسبانيا ان يركب القطار من بلدة الى أخرى قريبة ومنها يذهب
في تعاريج على غير فائدة لانها ليست متصلة بجارتها بسكة حديدية
مباشرة ومع أن معظم الخطوط الحديدية لشركات أجنبية فقد
أصيبت بمرض البلاد نفسها وأغنى سوء الادارة ورداءة الحال .
داع ان قتالان كان على الحكومة هنا ان تقا تلها واعنى
من انانية الاغنياء وجهل الفقراء . فالعلم متأخر جدا في ارض
اسبانيا لان نصف سكانها لا يقرأون ولا يكتبون وفي احصاء
آخر ان من سكان اسبانيا ستة ملايين يقرأون وخمسة يكتبون

ويقرأون واربعة عشر مليوناً أميون وليس في البلاد اكثر من
٥٢ الف كتاب ومدرسة للذكور والاناث ولكليهما معا وفي
فرنسا ٨٢٠٢١١ مدرسة ابتدائية و١٠٥٧ مدرسة وسطى وفي
اسبانيا عشر جامعات وهي جامعة مجريط وبرشلونة وغرناطة
وافيدو وصاهنكة وسانتياغو وسرقسطه واشبيلية وبلنسية
وفالادوليدا واذا فرضنا ان الواجب تعليمهم اربعة ملايين من
الاولاد لاقتضى ان يكون لهم ٨٠ الف معلم ومعلمة اذا أردنا
ان نسلم خمسين ولدا لكل مرب في حين ليس في البلاد سوى ٢٦
الفا اما المدارس الخاصة فلا تتجاوز الخمسة آلاف مدرسة وفيها
نحو ستة آلاف استاذ دع رداءة التعليم فان التلميذ يصر ف اوقاته
في التعليم الديني والصلاة والمعلم غير موسع عليه يعمل متثاقلا
بل قد يستجدي ويستوكف الاكف أحيانا لان الحكومة قد
تقطع عنه راتبه الضئيل لقلة المال وليس هناك أما كن لا ثقة
بالتدريس وحقيق بمن كان مثل هؤلاء المعلمين أن يحتاج الى
من يعلمه

التعليم في اسبانيا صوري غير عملي وجميع طبقات المدارس
محتاجة الى الاصلاح الكثير وفي أمثال الاسبان « المعرفة الكثيرة
تقود الى الالحاد » قال أحدهم : وليس على من يدعون أن التعليم
لا فائدة منه وليس في العلم من الفضائل التي تنسبونها اليه

في ارتقاء الشعوب الا أن ينظروا الى اسبانيا فهناك مثال من
الجهل يضاف اليه اعتقاد أعمى .

كانت اسبانيا أيام عزها تملك البورتغال ونابل وميلان وأقليم
الفرانش كونته والفلاندر في أوربا ومعظم ما يدعى اليوم باسم
أميركا الجنوبية وكثيراً من المستعمرات المهمة في أفريقية
والهند وما ليزيا ومن بورنيو الى كليفورنيا وما كان المحيط
الكبير الا بحيرة اسبانيولية وبعد قرن من موت فيليب الثاني
تناقشت وزارات أوربا في الطريقة التي يجب بها تقسيم اسبانيا ولم
تنجح هذه الأمة في مستعمراتها لانها لم تحسن حتى الآن ان
تستعمر أرضها فقد استولت على جزائر ماريان والكارولين
وغيرها من أرخبيل المحيط قروناً بدون أن يخطر لها أن تستعمرها
ولا تزال غير محتفلة بأملأ كها في خليج غينة وجزائر كناريا وقد
تخلت عن المكسيك سنة ١٨٣٦ وعن شيلي في سنة ١٨٤٥
وعن الارجننتين في سنة ١٨٥١ وعن بيرو سنة ١٨٦٥ وعن
كولومبيا سنة ١٨٨١ وعن كوبا وبورتوريكو وفيليبين سنة ١٨٩٧
وانتهت سطوتها الاستعمارية سنة ١٨٩٨ وكانت أيام حكمها في تلك
المستعمرات من أشأم الأيام السوداء فلم تكن اسبانيا ترسل الى
أميركا الجنوبية - بل الى سائر مستعمراتها - سوى رهبان
وموظفين وهؤلاء أضروا بها أكثر مما تفعوها . ولطالما أنذرت

المستعمرات دار الملك بالانسلاخ عنه فكان يهزأ بأقوال أهلها .
ولقد أندرت بلدية هافان عاصمة كوبا منذ سنة ١٨١٠ انها اذا لم
تبدل قانونها الاقتصادي والجرمي تصبح كوبا بلدة غريبة فهزأت
اسبانيا بهذا القول لأن اسبانيا ومستعمراتها كانت اذذاك ٣٨ مليوناً
من النفوس على حين لم يكن سكان الولايات المتحدة جمعاء يناهز
الثمانية ملايين نسمة بيد ان العبرة بالكيفية لا بالسكمية ولم ترح
اسبانيا من حكمها الاعوام الطويلة بلاد أميركا الجنوبية الا نشرها
لغتها ولا سيما في المكسيك^(١) وعدد السكان الاصلين هناك يقدر
بثمانية ملايين ثم دخل فيهم غيرهم من المهاجرين ولا تزال
الهجرة متصلة فتفقد اسبانيا كل سنة نحو مئتي ألف اسباني
يهاجرون الى أميركا وغيرها ويرتحل نصفهم على أن لا يعودوا
اليها ولكنها ترح منهم أموالاً فيرسلون اليها كل سنة بنحو مائة
وخمسين مليون بستانس ومنهم من ينشئ المدارس والكنائس
والمباني الخلد المتصلة ليعطوها للحكومة عنوان حبهم بلادهم
ومعرفتهم جميلها . وقوام هذا الحب العاطفة القديمة ليس الا .
أخذت الشعوب الاسبانية في أميركا تميل بالعلم المجرد عن كل
صبغة دينية حتى قال أحد رؤساء الكليات الاسبانية يجب علينا

(١) يقدر عدد المتكلمين باللغة الاسبانية أو القشتالية في اسبانيا وامريكا
الجنوبية عدا البرازيل وغريانا وامريكا الوسطى والانتيل وفيليبين وفي مستعمرات
اسبانية أخرى بزهاء ثمانين مليوناً . ولغة البرازيل البرتغالية وعدد المتكلمين
بهذه اللغة في أوروبا وأميركا نحو ثلاثين مليوناً

إذا أنصفنا أن نذهب الى أميركا نتعلم في جامعاتها لانهم صبوا الى العلم المحض على حين لم تزل كليتنا تتأثر بمؤثرات رجال الكهنوت . وكتب أحدهم منذ مدة ليس عندنا معاشر الاسبانيين ديوان تفتيش ديني الآن بل فينا فكر ديوان التفتيش الذي مازال يسرى فينا ويذلنا . ولذلك ترى ألوفاً من أبناء جمهوريات أميركا الجنوبية يرتحلون الى أوربا ليدرسوا في جامعاتها ولا يغشون اسبانيا التي تجمعهم بهار ابطة الدين والجنس واللغة لعلمهم بانحطاطها وهيهات ان يعود الى جامعة صامنكة الاسبانية - المشهورة في القرون الوسطى بأنها احدى الجامعات الأربع التي كانت تقيض النور على عالم النصرانية - بهاؤها ورونقها القديم والمدارس في جنوبي أميركا تسير على خطة المدارس في فرنسا .

يقول بعض من كتبوا على اسبانيا انها بلاد ديمقراطية والحال انها ارسنقراطية لأن الثروة والتعليم والتهديب العقلي والحياة المرفهة السهلة كل ذلك خاص بفتة صغيرة من أهلها وجمهورا لامة يعيش محروماً كل ذلك . والغلاء فاحش في البلاد لافي الكماليات التي تجلب من الخارج بل في الحاجيات وليس للاسبان حياة المجتمعات فان الاجتماعات والضيافات خاصة بالكبراء وقلما يخرج القوم من هيوتهم وقلما يسافرون ولا ذوق لهم في الاستمتاع بالطبيعة لسماع

أصوات الطيور في الغابات والتمتع بالهواء الطلق والمناظر الجميلة والطبقة الوسطى قريبة من الدنيا لولا طلاء ظاهري عليها على انك ترى في الشعب السداجة والاستقامة والكرم صفات أحفظ بها .

العامية في الاسبان تتكلم كالمخاطبة واحدة فصيحة لا تفاوت بينها والشعب خاضع صبور يحتمل مصابه . وقل ان ترى في اسبانيا من أبناء الطبقة الوسطى من يحسنون المدخل والمخرج ويعملون عملاً صالحاً اللهم الا في بعض المراكز وقد تألفت منذ نحو ثلاثين سنة منهم طبقة مستنيرة في الجملة ولكنها قليلة ومع هذا بقيت المرأة فيهم على حالتها الأولى . وان القوم لينقصهم كثير من مبادئ الآداب الأولية الشائقة بين الأمم الراقية كالفرنسيين والانكليز والالمان وغيرهم فتراهم يدخنون في كل مكان خاص وعام ويصقون في القطار والمقهى والنزل والفندق والبيع على صورة تسمى منها النفس . والطبقة العليا الغنية في الاسبان تعيش عيشاً يقرب من عيش جمهور الناس في انكلترا وفرنسا .

كانت التيوكراسية والبلوتوكراسية والبور وكراسية أى الحكم الألهى والدينى والقرطاسى - أو الحكومة التى تدعى بأمرها تصدر عن وحي سماوى أو تكون مأخوذة بوازع دينى أو تطيل في أوضاعها ومعاملاتها - من أمراض اسبانيا الاجتماعية فيما مضى ويزيد عليها اليوم مرض آخر وهو حب الجنديّة La Caciquism وليس

في الاسبان عيوب متأصلة في عنصرهم بل عيوب عرضية ناشئة
من التربية وقلة المعرفة وفساد النظام والأحكام ومعظم هذه
الأمراض عارضة . ثم ان الاسبان من جهلهم بأنفسهم يجهلون
غيرهم ويكرهون الغريب وان أظهر واله على رواية بعضهم كرمياً
ولطفاً وقد اقتبسوا هذا الخلق من العرب كما قال فيهم أحد الباحثين .
وانا على ما نرى الآن من عيوبهم في قدارتهم وتشردهم
وجهلهم وقلة عنايتهم بالعمل احتفالهم بالصناعات وميلهم الى
الاعتناء السريع نشهد فيهم صفات صالحة للبقاء وهي الثبات والصبر
وحب الاستكثار من البنين والبنات والميل الى الشعر وهم من
كثير من الوجوه يشبهون أهل سورية في هزلهم واستكانتهم
وتبلغهم بميسور العيش أو انبعاث همهم الى أقصى مراميها .
والاسباني ولا سيما في الجنوب يميل الى البطالة والراحة ويتفخل
ويتعجرف ويولع بالخيالات وهم في المدن والقرى يجتمعون
أولاداً ونساءً ورجالا على الابواب وفي منعطفات الطرق
ويتهازلون ويتلاكمون حتى لتظنك في قرية كبيرة من قرى الشام
تبرنط أهلها فقط أي لبسوا البرانيط أو البراطيل أو القبعات
وأحسن ما فيهم كثرة النسل ومنه مادة نجاحهم في المستقبل وزيادة
السكان تساعد على الانتخاب الطبيعي في المجتمع وتضطر الناس
الى العمل وتضمن النجاح الاخير للذكاء
ان الامة الاسبانية التي وحدت قواها فطردت العرب

في القرون الوسطى ثم وحدث قواها في القرن التاسع عشر
فطردت الفرنسيين على عهد نابوليون من أرضها قد اثبتت اذا
انصفنا وطنينتها في تينك الوقعتين المهمتين بيد أن من عيوبها أنها
لا تستفيد من الخارج وقد أخذت الآن تفكر في مستقبلها
ورقبت منذ انصرفت عن مستعمراتها لولا أن عادت فخذتها نفسها
بامتلاك الريف وحرب أهله في مراکش فنهشل جيشها وكان مؤلفاً
من ثمانية عشر ألفاً أسر مع قواده وضباطه فعادت اسبانيا
وأرسلت على الريفين أو بادية المغرب الاقصى مئة ألف مقاتل
وما تدري أيلتئم أنتصارهم على هؤلاء البدو على ما في نفوسهم
من شتم وما فيها من العجب والخيلاء فيقال لهم بعد زمن قد ظفرتم
ولكن بمن؟ واذا غلب الريفيون فليسوا أول شعب ضعيف ذل
أمام قوى . واذا استولى الاسبان على الريف وخضع لسلطانهم
من أقصاه الى أقصاه لا يساوى جزءاً من المال والدم المهرق
وأرض اسبانيا الجميلة أحق بالعناية والاستثمار

البورتقال بعمر العرب

٢٤

ليس بين اسبانيا والبورتقال حدود طبيعية ولما وافي العرب شبه جزيرة ايبيريا لم تكن مملكة البورتقال قد تأسست ولا لغتهم قد تم تأليفها وتقدم العرب الى بلادهم فاستولوا عليها وكان شأنهم في لشبونة عاصمتها اليوم على المحيط شأنهم في بلنسية على البحر المتوسط فسخت حضارتهم في لشبونة وشنترين وشنتره وياره وبطليوس وشلب وولب وباجة وطبيرة وقلمريه وشنتمارية كما رسخت في برشلونة وطرخونة وبلنسية ودانية وقرمونة ووادي آش وغرناطة وجيان واشبيلية وقرطبة . وكان غرب الاندلس أو أكثر بلاد البورتقال من أول ما تخاص من حكم العرب في القرن السادس .

ولم يشتهر البورتقاليون كثيراً في كتب العرب الاندلسيين بل كانوا يطلقون في الغالب اسم الروم على الاسبانيين والبورتقاليين معاً كما كانوا يطلقونه على غيرهم من أجيال الفرنجة واذ كان مقام البورتقاليين في شبه جزيرة ايبيريا نوبياً - بالنسبة للاسبانيين كانت تأثيرات اللغة العربية أيضاً في اللغة البورتقالية أقل منها في اللغة الاسبانية وتأصلت فيهم عادات العرب أقل من تأصلها في جيرانهم

غزا العرب البورتقاليين في الزمن الذي غزوا فيه الاسبان
ففتحت بلادهم أواخر القرن الاول للهجرة على يد موسى بن
نصير وطارق بن زياد وجاءها أناس من جزيرة العرب وبلاد البربر
فزلوها وعمرت بهم كما فعل اخوانهم في بلاد اسبانيا حتى أصبحت
كانها مملكة اسلامية من بلاد العرب

ولما انحلت الدولة الاموية في المشرق خضع لسلطان
عبد الرحمن الداخل معظم شبه جزيرة ايبيريا ومن جملتها بلاد
البورتقال فاورشها هو وأخلافه عمراناً وثروة وبلغت لشبونة
(اسبونة) عاصمتها أقصى مراقي العمران في أيامهم ولم
تكن بالبلد الطيب قبل العرب ، وما لبث البورتقاليون أن ألفوا
حكومة لهم في بلاد الجلالة أخذت تقوى مع الزمن وتسير على
الأغلب مع مملكتي قشتالة واراغون جنباً الى جنب في قتال
العرب .

قال مؤرخو الافرنج : خرب العرب بلاد البورتقال يوم
خربوا افيلا وصلمنكة سنة ٣٩٩ هـ وافتتح الفونس الخامس
جزءاً من البورتقال سنة ٤١٨ - ١٠٢٧ سنة ٥٤٣ أخذ ملك
البورتقال لشبونة وشنترين^(١) وشنتره وفي سنتي ٥٥٣ و ٥٧٣

(١) قال الاصطخرى في كتاب الاقاليم : وشنترين التي على البحر المحيط
بها يقع الغبر ولا يعلم يبجر الروم والبحر المحيط موضع غير الابشنترين . . .
ويقع بشنترين في وقت من السنة من البحر دابة تحتك بحجارة على شط البحر
فيقع منها وبر في لون الخز لونه لون الذهب لا يغادر منه شيئاً وهو عزيز قليل

توسع البورتقاليون في فتوحهم وفي سنة ٥٨٥ خرب العرب بلاد البورتقال خصوصاً لشبونة ثم عاد البورتقاليون في السنة التالية ٥٨٥ — ١١٩٠ م فاستولوا على عدة حصون ، ويقول مؤرخو العرب ان ابن الرنك وهو من ملوك الفرنج غرب بلاد الأندلس ملك سنة ٥٨٣ مدينة شلب وهي من كبار مدن المسلمين واستولى عليها فسار صاحب الغرب والاندلس بعسكره فقاتلهم حتى ذلوا وسموا ولما كان في سنة ٥٨٥ قصد بطروا بن الريق (؟) مدينة شلب فنزل عليها بعساكره وأعطاه من البحر الافرنج بالبطس والشواني وكان قد وجه اليهم يستدعيهم الى ان يعينوه على ان يجعل لهم سبي البلد وله هو المدينة خاصة ففعلوا ذلك ونزلوا عليها من البر والبحر فملكوها ثم عاد المسلمون فأخذوها وأخذوا من بلادهم حصناً يقال طرش .

تولى أمر البورتقال تسعة ملوك من الأسرة البورغونية حكموها الى سنة ١٣٨٣ م ففقوا قلوب أهلها واشتغل البورتقاليون بدفع العرب عن بلادهم ، وعاونوا اخوانهم الاسبانيين معاونة شديدة للخلاص من العدو المشترك فقد هزم البورتقاليون المرابطين في وقعة شنترين وخلصوا جزءاً مهماً من بلادهم وغلبوا فيجمع منه وينسج منه ثياباً فيتلون في اليوم الوانا ويحجز عليها ملوك بني أمية فلا تنقل الاسرا وتزيد قيمة الثوب على الف دينار لعزته وحسنه اه قلنا وشنترين ليست على البحر المحيط ولكنها قريبة منه

العرب وعاونوا القشتاليين سنة ١٢١٢ في وقعة العقاب التي
أفضت كما قال ابن الأبار الى خراب الأندلس بالدائرة على المسامين
فيها ، وكانت السبب الأقوى في تحيف الروم بلادها حتى استولت
عليها ، وعاون البورتقاليين سنة ١١٤٧ م ، ٥٤٣ هـ جيش مؤلف
من الصليبيين الفرنسيين والانكليز والالمان والفلاماندين
للاستيلاء على لشبونة وفتح الفونس الثالث القسم الجنوبي من
البورتقال المعروف عند العرب باسم الغرب Algarve ١٢٤٩ -
١٢٥٣ بعد ان ملك العرب هذه الولاية من القرن الثامن الى القرن
الثالث عشر ، ومنح ملك البورتقال المغلوبين الذين بقوا في لشبونة
من العرب بعض الحرية فظلوا فيها ، وقويت بهم التجارة البحرية ،
وقد أسعد الحظ بلاد البورتقال فجاءها منذ استقلت ملوك الالنادر
منهم على جانب من الدهاء والعقل يحسنون الغارة كما يحسنون
الادارة فوسعوا حدود بلادهم وقووا الوطنية البورتقالية وعرفوا
أمتهم طعم الاستقلال حتى ان أحدهم جلس على سرير الملك خمساً
وستين سنة وقوى ملكه حتى قطع أمل ملوك قشتالة من بلاده
وخلصها كما خالصها أخلافه من سطوة النبلاء ورجال الكهنوت
فلم تترك البورتقال مجالاً لجارتها القوية اسبانيا أن تأخذها .
ولما فتح البورتقاليون اقليم الغرب في اقصى الجنوب الغربي
من شبه جزيرة ايبيريا أخذوا يتوسعون في فتوحهم فركبوا البحر
وفتحوا بعض مدن الغرب الاقصى ولاسيما طنجة وأرسلوا

الى بر العدو من الجند بقدر ما كان أهل بر العدو يرسلون
منه نجدة لآخوانهم الاندلسيين العرب ثم شغل البرتقاليون بعد
ذلك باكتشافاتهم البحرية ومستعمراتهم الجديدة فعدلوا عن
التوغل في الغرب الاقصى بل أزمعوا الرحيل منه .

وعلى ذكر الصليبيين الذين عاونوا البورتقاليين للاستيلاء على
لشبونة لا بأس بأن نشير الى ان الاسبانيين والبرتقاليين كثيرا
ما كانوا يستنصرون بجيرانهم من ملوك الافرنج فينجدونهم فقد
جاء سنة ٤٨١ عدة أمراء فرنسويين لمعاونة اسبانيا على العرب
وكذلك شخص كثير من الطليان وكلهم بأمر البابا وفي سنة ٦٠٨
قصد صاحب الاندلس قلعة عظيمة للافرنج تدعى شلب تره
ففتحها بعد حصار تضيق عليها شديد فراع فتح هذه القلعة
الروم وخامرهم الرغب فخرج الادفنش الى قاصية بلاد الروم
مستنفرا عطاء الروم وفرسانهم وذوى النجدة منهم فاجتمعت
له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها حتى بلغ تغيره الى القسطنطينية
ووافقها صاحب ارغن وفي سنة ١٢١٠ م تحالف جميع ملوك النصرانية
على التعاون على المسلمين واستنفر البابا اينوسان الثالث جميع
امم أوروبا الى غزو عرب الاندلس فاجتاز جبال البيرنات
ستون ألف مسيحي لقتال العرب .

ولما انهزم الفونس ملك الفرنج وكان مقر ملكه طليطلة
في سنة ٥٩١ أقبح هزيمة عاد الى بلاده وركب بغلا وأقسم انه

لا يركب فرساً حتى تنصره ملوك فرنجة فجمعوا الجموع العظيمة
وجرت لهم مع المسلمين وقائع كثيرة الى أن ملكوا أكثر مدن
الاندلس .

وهكذا كان ملوك الافرنج ينصرون ملوك قشتالة وارغن
وليون خصوصاً من عرف منهم شوكة العرب اذ ذاك أمثال
حكومات ايطاليا وفرنسا ، ولكن الفرنج كان ملوكهم من
الضعف في تلك الازمان بحيث يعجز كل واحد عن حفظ بلاده
دع استخلاص بلاد غيره ، ثم ان الحروب الصليبية التي دامت
نحو قرنين أخرت قليلا اخراج العرب من الاندلس ولو سيرت
عليها بعض القوة التي سيرتها الى الأرض المقدسة لما طال حكم
العرب على الاندلس الى أواخر القرن التاسع للهجرة .

كانت البرتغال تعتبر شريفاً كل برتغالي أسره العرب ولم يصبأ
عن دينه الى الاسلام ، وكذلك كل من حاربوا العرب في وقعة
أوريك سنة ١١٣٩ التي كتب فيها النصر للبرتغاليين ولا تعد
في الاشراف كل من ضربوا امرأة بسيف أو رمح أو كذبوا أو
هربوا من معركة وقعت للبرتغال مع العرب .

وما برحت البرتغال تن من سلطة رجال الدين أنين جارتها
اسبانيا وهي في يد الباباوات كالحاتم في يد لابسه يقلبه كما يشاء
حتى نادت منذ ثلاث عشر سنة بالجمهورية وتخلصت من سلطة
الكهنوت ، وكان أول عمل لها طردها الرهبنة اليسوعية من

بلادها واستصفاؤها اديارها والقضاء على الرهبان والراهبات
انتقاماً منهم (المقتبس م ٥ ص ٤١٠) على سعيهم في قتل فريرا
رجل الاسبان الحر وكانوا قتلوه بمساعيهم لدى الحكومة على
أبشع صورة عرفت في عصر النور والمدنية فتخلصت البورتقال
كما تخلصت أختها برازيل من قبل من الحكم الملكي ولها اليوم
٣٨٥٠٠٠٠٠ كيلو متر من المستعمرات يبلغ سكانها عشرين مليون
نسمة ويبلغ سكان البورتقال ستة ملايين نسمة ينزلون في ١٩٤٨
كيلو متراً ولا تزال حصون العرب الى اليوم على قمم الجبال في مدينة
شنتره ، وبجانب بعضها مسجد باقية آثاره الى الآن وعلى مقربة
منه قبر دفن القوم فيه عظاما وجدوها ولم يعلموا أنها للمسلمين
أو للنصارى فوضعوا على رجام القبر صورة الصليب وصورة
الهلال والقسم الذي كانت تسكنه العرب في لشبونة يعرف عندهم
باسم الحمة (لا بتشديد الميم) ويسميه البورتقاليون الآن من باب
التحريف الغاما ومنظر هذه المدينة يشبه المدائن الشرقية ومن
أمهات مدن البورتقال كويمبرا Coimbra المعروفة في كتب العرب
باسم قلمرية ، وهي الآن دار العلم ومحط المعارف في بلاد
البورتقال ومنها مدينة بورتو واسمها في كتب العرب برتقال وبها
يسمى هذا القطر بورتقال . وفي هذه المدينة دار البورصة بنيت
على الطراز العربي ونقشوا أعظم بهو فيها بالطراز العربي وزينوه
بالزخارف وكتبوا في ضمن رسومها اشعاراً عربية . وفي متحف

لشبوثة على ما حدثني به الثقة كثير من الآثار العربية ولا سيما
ما أخذه الألمان من الشام قبل الحرب الأخيرة فوقع في أيدي
الخصماء فاعطوا السفينة الألمانية وما حوت للبورتقال لأنها أسرت
في بحرها وذلك من جملة مكافآتهم لها على محاربتها في صفوفهم
وتجنيدها ثمانين ألفاً من كآة رجالها .

فهرس

كتاب غابر الاندلس وحاضرها

		صفحة
الاندلس		٣
صدر الكلام ومصادره	١	٤
تحيمة الاندلس	٢	٩
تقويم الاندلس	٣	١٣
فتح الاندلس	٤	١٧
عمران الاندلس	٥	٢٦
أهل الاندلس	٦	٣٢
تسامح العرب	٧	٣٧
العرب والاسبان	٨	٤٥
العلم في الاندلس	٩	٥١
تقنن عرب الاندلس	١٠	٧٧
مدينة مجريط	١١	٩٤
دير الاسكوريال	١٢	٩٧
قرطبة والزهاء	١٣	٩٩
مدينة اشبيلية	١٤	١٠٧
مدينة غرناطة	١٥	١١٠

		صفحة
قصر الحمراء	١٦	١١٤
كتابات الحمراء	١٧	١٢٤
ذكرى مؤلمة	١٨	١٢٩
جلاء المسلمين وتنصيرهم	١٩	١٣٤
سقوط الاندلس	٢٠	١٤٣
جبل طارق وطنجه	٢١	١٥٠
علم المشرقيات في أسبانيا	٢٢	١٥٣
اسبانيا بعد العرب	٢٣	١٥٨
البورتقال بعد العرب	٢٤	١٨١



مختار من مطبوعات مكتبة

الاسلام وكرومر

أوالاسلام روح المدنية - للشيخ مصطفى الغلاييني - ثمنه ٧ قروش

حديث القمر

للسيد مصطفى صادق الرافعي - ثمنه ٥ قروش

خمسة دواوين العرب

(١) النابغة الذبياني (٢) عروة بن الورد (٣) الفرزدق

(٤) حاتم طي (٥) علقمة الفحل - ثمنه ١٢ قرشاً

ديوان الرصافي

هو شاعر العراق الكبير معروف الرصافي - ثمنه ١٢ قرشاً

رجال المعلقات العشر

للشيخ مصطفى الغلاييني (طبعة ثانية) - ثمنه ١٠ قروش

العروة الوثقى

للسيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده - ثمنه ٢٠ قرشاً

غرائب الغرب (جزآن)

للاستاذ محمد كرد علي - الطبعة الثانية - ثمنه ٣٠ قرشاً

كشكول جمال (جزآن)

مجموعة لا يستغنى عنها كل شيخ وكل شاب وكل سيدة
وكل آنسة وثمانهما ١٠ قروش

مدينة العرب

في الجاهلية والاسلام ، تأليف محمد رشدي الخبير — ثمنه ٨ قروش

المكتبة الاهلية

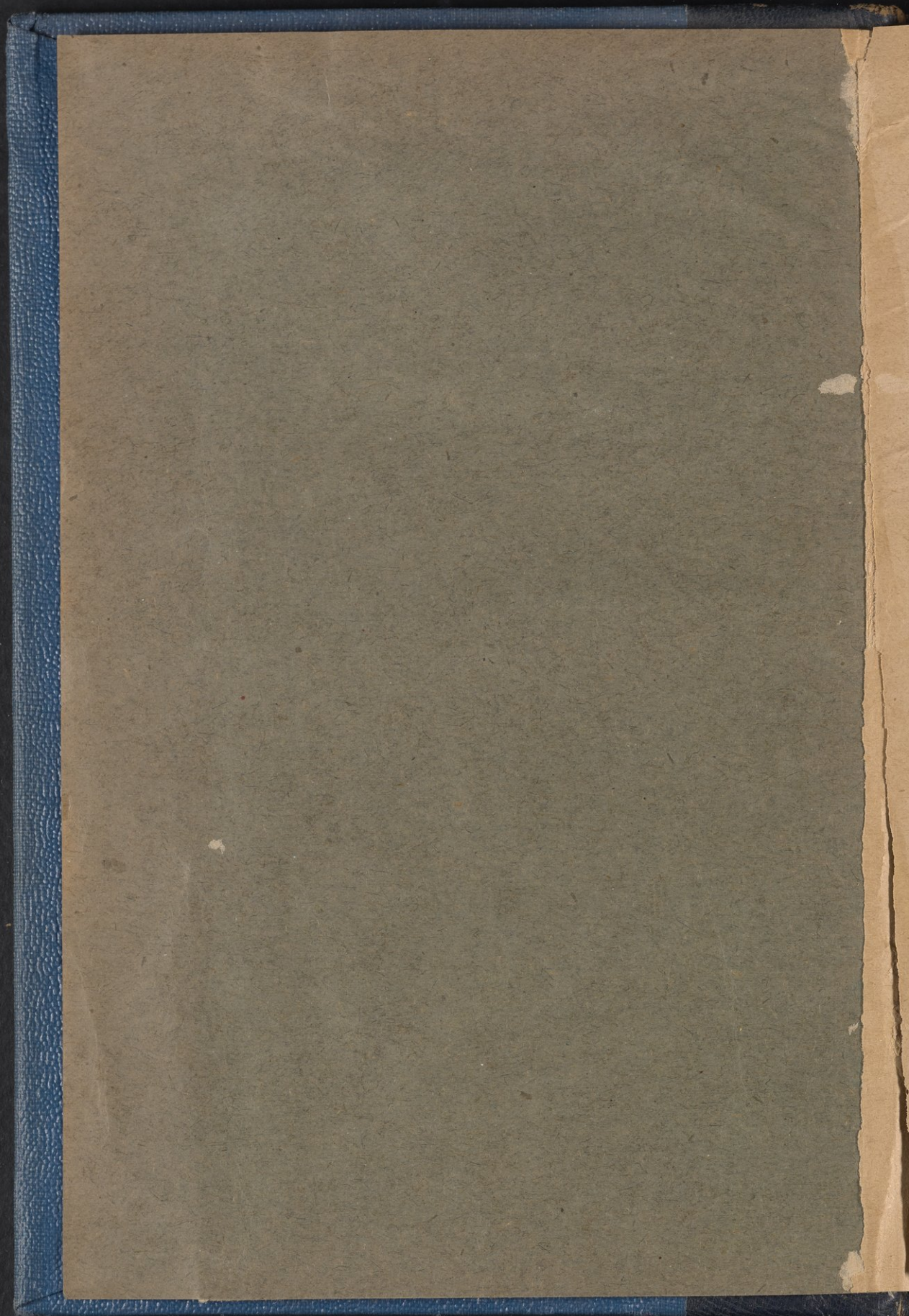
في عامها الثامن عشر

ظهر (بيانها) — قائمتها — لسنة ١٣٤٢ هـ — ١٩٢٣ م

وهو يرسل — مجاناً — لمن يطلبه

ترسل المكاتبات باسم صاحبها — محمد جمال —

صندوق البوستة ٩١٨ — مصر



LIBRARY



DP
302
A46
K9x
1923

MAY 1974

MAY



1 0 0 0 0 0 5 9 8 7 8

